الفصل السادس

# عصر النبى موسى واليهود

## 1 ـ تمهيد:

لقد سبق أن أشرنا إلى أن النبى موسى على رأس الباحثين مصرى تربى في البلاد الفرعونى، وكان قائدا مصريا، وأن حملته على أرض كنعان " فلسطين " التي أطلق عليها كتبة التوراة " خروج بنى إسرائيل " إن هى إلا حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود المصريين ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بدين التوحيد الذي ورثوه عن أخناتون، فاضطروا إلى الهرب من مصر من وجه اضطهاد السلطة الحاكمة وضغط السكان الوثنيين بعد موت أخناتون، وقد جاءوا بقيادة النبى موسى ليحتلوا بقعة من الأرض المعمورة في كنعان يأوون إليها، وهؤلاء هم " قوم موسى " جاءوا إلى أرض كنعان وهم غرباء عنها يتكلمون اللغة المصرية ولم تكن لهم أية صلة ببنى إسرائيل الذي كانوا قد جاءوا إلى مصر في عهد يوسف قبل عصر موسى بستمائة عام والذين انصهروا واندمجوا بشعب مصر وبيئة مصر نهائيا، كما سبق وشرحنا الغرض الذي من أجله سمى كتبة التوراة هذه الجماعة ببنى إسرائيل وهو إرجاع أصلها إلى أقدس العروق من الأجناس البشرية فربطوا صلة هذه الجماعة مباشرة بإبراهيم الخليل وبحفيده يعقوب وبكل مكان مقدس من فلسطين وجعلوا كل التوراة تدور حولهم وقد اعتبروا من سمى ببنى إسرائيل موجودين في كل زمان ومكان وأنهم وجدوا حتى قبل أن يخلق يعقوب (إسرائيل) وما بعده بعدة قرون.

## 2 ـ شخصية النبى موسى وديانته التوحيدية الخالصة:

إن أقدم ما وصل إلينا عن نظرية كون موسى مصريا: عدا ما اتصل اسمه بالمصرى وما ورد في التوراة من أنه تربى في البلاط الفرعونى وأن ابنة فرعون اتخذته ابنا لها [1]، ما رواه المؤرخ اليهودى الشهير فلافيوس يوسفوس الذي عاش في القرن الأول الميلادى [2]، أنه قبل حوالى ألف سنة، من أن موسى

---

(1) (خر، 2: 10).

(2) يوسفوس (37 / 38 - 93م)، كاهن مؤرخ يهودى ولد في القدس، كان مضطلعا في الفقه اليهودى، انضم إلى فرقة الفريسيين، أوفد سنة 64 م كمندوب عن اليهود للمفاوضة مع الرومان حول إطلاق سراح بعض الأسرى من اليهود، فحظى في روما بالمثول بين يدى الإمبراطورة " بوبايا " Poppaea، اشترك في حرب اليهود ضد الرومان سنة 66 م، ووقع أسيرا بيد الرومان 67م، وأنقذت حياته بتحقيق تنبوآته بأن

كان حاكما أو كاهنا مصريا، وقد كان قائدا كبيرا بالجيش المصرى خلال الحملة المصرية على الحبشة التي حقق فيها نصرا كبيرا، وقد تزوج هناك من " تربيس " بنت ملك الحبشة [1]، كما أن الفيلسوف اليهودى الإسكندرى " فيلون " (30 ق.م - 40 ب.م) أيد بأن موسى كان مصريا، وبذلك يكون كلاهما قد خالفا الإجماع اليهودى على عبريته [2]، وقد ورد في التوراة ما يؤيد زواج موسى في الحبشة، فقالت أنه تزوج من امرأة كوشية (أثيوبية)، كما ورد في التوراة أنه تزوج أيضا من ابنة يثرون كاهن مديان [3]. ففى كلا الزواجين لم نجد ظاهرة تدل على أنه كان لموسى صلة ببنى إسرائيل الذين عاشوا قبل حوالى ستمائة عام من عصره[4].

وفى التوراة أيضا ما يشير إلى أن موسى سمى بالمصرى في قول بنات يثرون لآبيهن عن نجدة موسى لهن من الرعاة " فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة وأنه استقى لنا أيضا وسقى الغنم " [5].

ويؤكد ول ديورانت أن موسى اسم مصرى ولعله اختصار للفظ حموس [6]، ويقول نقلا عن جارستانج عضو بعثة مارستن التابعة لجامعة لفربول أنه اكتشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته في عام 1537ق.م.

---

فسياسيانوس سيصبح إمبراطورا، فأطلق سراحه سنة 69م، اعتبره اليهود خائنا لأنه عمل مع تيتوس كمترجم= =عندما ضرب تيتوس حصارا حول أورشليم، ثم رافق تيتوس إلى روما حيث منح معاشا وحقوق المواطن، وله من المؤلفات: " حرب اليهود "، و " تاريخ اليهود القديم " و " تاريخ حياته "، و " رسالة في الدفاع عن اليهود " (دائرة المعارف البريطانية ج13، ص 89)، لقد ترجم كتاب " تاريخ اليهود القديم "، إلى العربية وطبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت.

(1) الدكتور أحمد شلبى، " مقارنة الأديان اليهودية "، ص43.

انظر أيضا:

Freud "Moses and Monotheism",P. 47; Josephus, "Antiquities", ch.2,PP. 7 - 11; Rappoport, "Myth and Legend of Ancient Israel", P. 365.

(2) الدكتور سامى سعيد الأحمد، " الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية "، ص 13.

(3) (عد، 12: 1).

(4) (خر، 2: 21).

(5) (خر، 3: 19).

(6) انظر ما تقدم عن اسم الفرعون " أح موسى " مؤسس السلالة الثامنة عشرة.

بالتحقيق الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد 1501 - 1479 ق.م) وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحوطمس الثالث (1479 - 1447 ق.م).

ويضيف ديورانت أن يوسفوس ينقل عن مانيثون - وهو مؤرخ مصرى عاش في القرن الثالث قبل الميلاد - أن موسى كان كاهنا مصريا خرج للتبشير بديانة التوحيد[1]. وقد ورد في التقليد أن ابنة فرعون أقامت عليه أساتذة من الكهنة يفقهونه علوم المصريين [2].

ويذهب بريستد إلى أن موسى اسم مصرى بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة " مس " ومعناه طفل وهى مختصرة من اسم مركب كامل الأسماء " أمن مس " ومعناه " أمون الطفل " أو " بتاح مس " ومعناه بتاح الطفل.

ولاشك أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل أمون أو بتاح، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجيا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى موسى [3].

وهناك رواية أخرى ذكرها المؤرخ اليهودى يوسفوس هى أن ترموثيس Thermuthis هو الذي اختار لموسى هذا الاسم لينسجم مع رواية انتشاله من النهر وهو مؤلف من كلمتين " مو " ومعناها الماء عند المصريين و " أوسى " التي تشير إلى معنى الإنقاذ من مكان ما [4].

وقد نقل المؤرخ اليهودى يوسفوس (القرن الأول الميلادى) عن مانيثون الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود سنة 280 ق.م، أن موسى من أهل هليوبولس وأحد كهانها وكان اسمه أوسارسيف على اسم أوسيرس إله هليوبولس ولكنه بدل اسمه إلى موسى، وأنه تزعم ثورة على عبادة الأوثان التي كان يعمل بها السكان [5].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الكاهن الأعلى لمدينة ممفيس، عاصمة

(1) ول ديورانت، " قصة الحضارة "، الترجمة العربية، ج2، م1، ص326.
(2) المطران يوسف الدبس، " تاريخ سورية "، 1895، ج1، م2، ص 91.
(3) " فجر الضمير "، ترجمة الدكتور سليم حسن، ص 276.
(4) W. Whiston, "The Complete Works of Josephus", "Antiquities "m Book 11, Chap IX, P. 33.
(5) المرجع السابق، ص 543 - 548.

مصر المشهورة في عهد تحوطمس الثالث (1479 - 1447 ق.م) كان يدعى " بتاح موسى " وقد عثر على هرم له (انظر التصوير رقم 81). وبتاح هو أهم آلهة ممفيس قدسه معظم المصريين واعتقدوا أنه هو الذي خلق الدنيا، ثم تطور هذا الاعتقاد فيما بعد فتوصلوا إلى أنه أبو جميع الآلهة، الإله العظيم صاحب البداية الأولى، " أول إله في الخليقة " (1).

ومن العلماء المحدثين الذين بحثوا هذه الناحية من حياة النبى موسى العالم النفسانى المشهور سجمند فرويد، ففى تحليله لشخصية موسى في كتابه المعروف " موسى والتوحيد " الذي كتبه عام 1938م قبيل وفاته انتهى إلى أن موسى كان مصريا وليس إسرائيليا مما أثار غضب الصهيونية عليه، لأن الصهيونية كما هو معلوم لا تقر بغير يهودية موسى المتصلة بنسب إبراهيم الخليل وبيعقوب، مع أن البعض يقر مصرية موسى من حيث نشأته ويعده يهوديا من حيث مولده (2).

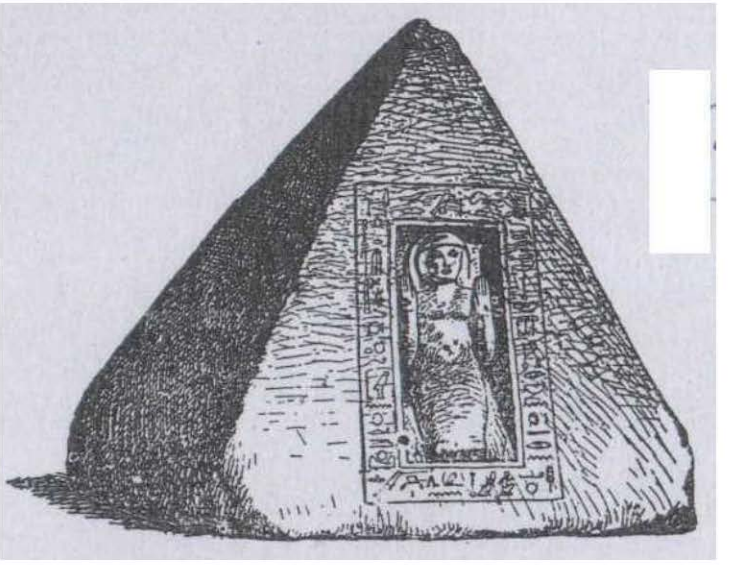

**تصوير رقم 81**

(1) أدولف أرمان، " ديانة مصر القديمة "، ص 29، 314.

(2) انظر ما تقدم عن " عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو غير عصر موسى ولا صلة بينهما "، في الفصل الخاص، كذلك " تاريخ التوراة، لغتها ومكان ظهورها "، في الفصل الثالث.

هرم " بتاح موسى " الكاهن الأعلى لمفيس عاصمة مصر الفرعونية يرجع تاريخه
إلى عهد تحوطمس الثالث (1479 - 1447 ق.م) - عن أرمان
" ديانة مصر القديمة "، ص 314 (برلين 2276)

لذلك هاجم الصهيونيون هذا الكتاب وحطوا من أهميته وقيمته التاريخية واعتبروه دون المستوى الذي اعتاد أن يقدمه للناس فعدوا كتابه نتاج عقل زحفت عليه الشيخوخة فأفسدت أحكامه ورجوا، من قبيل التكريم لفرويد، فيما زعموا، لو مضى الكتاب دون أن يتنبه إليه أحد وقال بعضهم تعقيبا على الكتاب: أنه لو لم يكن من تأليف فرويد لكان الأرجح ألا يجد ناشرا يقبل نشره، وهاجمه موريس كوهن أحد فقهاء التلمود قائلا: " لو أن شخصا آخر كتب هذا الكتاب لكان خليقا أن نعده كتابا لأفاق مكابر. ثم عاد وقال: " صحيح أن هذا الكتاب الذي يفتقر إلى الأسس السليمة لن يضل أى باحث جاد في اليهودية، ولكن يخشى أن يتأثر به جمهور القراء فيعدونه مساهمة ذات قيمة من التحليل النفسى في فهم التاريخ اليهودى " [1].

ومن ردود الكتاب اليهود على فرويد ونظريته رد دافيد باكان ( David Bakan) أستاذ علم النفس بجامعة ميسورى الأميركية، فقد وضع مؤلفا بعنوان " سجموند فرويد والتراث اليهودى " وخرج فيه بأن فرويد تأثر ببعض التيارات الإلحادية المتوارثة بين يهود شرق أوربا، ثم يتهجم فيه على كتاب فرويد ككل ويصفه بأنه نتيجة حالة " خرف وشيخوخة " [2].

ويعرب فرويد عن دهشته لأخذ المؤرخين بالفكرة القائلة أن موسى اسم مصرى وأنه تهذب بكل حكمة المصريين ولكن مع ذلك لم يخرج أحد منهم بالنتيجة المنطقية التي تترتب عليها استنتاجات تاريخية خطيرة، ويرجع فرويد ذلك إلى " أن التراث الإنجيلى كان سدا منيعا في وجههم، إذ ربما يبدو مريعا تصور أن موسى كان شيئا آخر غير كونه عبريا (يهوديا)، ولذلك فإن اكتشافهم أن الاسم المصرى لم يكن عاملا يدعوهم إلى الحكم على أصل الرجل. ولكن لما كانت جنسية هذا الرجل العظيم تعتبر في غاية الأهمية فإن أية مواد جديدة تقدم إجابة يجب الاهتمام بها " [3].

ثم ينتهى فرويد إلى تكوين الرأى بثنائية العقيدة اليهودية، فيقول: " إن التاريخ اليهودى يقوم على الثنائية، فقد كان هناك شعبان اندمجا معا في أمة واحدة ولم تلبث هذه الأمة أن انقسمت إلى مملكتين، وهناك اسمان للإله في أصل التوراة،

(1) الدكتور صبرى جرجس، " التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى "، ص 397.
(2) محمد العزب موسى، " موسى.. مصريا "، ص 81 - 95.
(3) محمد العزب موسى، " موسى.. مصريا "، ص 19 - 20.

بل كانت هناك عقيدتان في الواقع طردت الأولى بوساطة الثانية ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة في النهاية، وكان هناك مؤسسان لهاتين العقيدتين حمل الاثنان نفس الاسم (موسى). وقد قمنا في هذا البحث بالفصل بين الشخصيتين، وكل هذه الثنائيات جاءت كنتيجة ضرورية لنقطة البداية المزدوجة " [1].

وفى تحليل شخصية النبى موسى عليه السلام وما نسبه إليه كتبة التوراة من أعمال يقول الأستاذ لودز (Lods): " ونظرا لفقدان الوثائق المعاصرة لزمن موسى فقد أصبح من أصعب الأمور القول على وجه الصحة من كان موسى وما كان العمل الذي قام به؟ إلا أنه لا يسعنا التهرب من الاعتقاد بأنه لابد وأن تكون قد برزت، خلال التقليد الطويل شخصية قوية تولت الزعامة، لأننا حين نرتفع إلى مستوى عال في مجرى التكوين الحضارى نجد أن العوامل الأساسية التي تؤثر في الحياة الدينية عند الشعوب لا تقوم إلا على يد شخصيات قوية ذات مواهب خارقة هى التي تقرر مصير الدعوة التي تنطوى عليها هذه العوامل. إلا أن المحاولات في سبيل صياغة شخصية أسطورية خارقة للطبيعة من موسى كانت غير ناجحة.. إن موسى يمثل رمزا أسطوريا ولكن هناك وراء هذا الرمز الأسطورى حقيقة واقعية، هى أن هناك شخصية قوية برزت على أثر الاضطهاد المصرى " [2].

### 3 ـ قصة خروج موسى وجماعته من مصر:

أما قصة خروج موسى وجماعته من مصر - القصة التي استرسل كتبة التوراة في شرحها في سفر الخروج من العهد القديم - فهى لم تكن خرافية كما يرى البعض، وإنما هى حادثة تاريخية حقيقية تنطوى على خروج جماعة من مصر في عهد معين وتوجه هذه الجماعة نحو أرض كنعان المجاورة، وذلك بقيادة زعيم روحى عرفته الأجيال باسم النبى موسى. وقد شاءت الأقدار أن يسدل الستار عن حقيقة هذه الجماعة وأسباب خروجها، إذ لم يعثر حتى الآن على مصدر قديم من المخطوطات الآثارية يعاصر خروج هذه الجماعة من مصر يشرح لنا هويتها على حقيقتها أو الدوافع التي حملتها على الخروج من مصر. والمصدر الوحيد الذي بين أيدينا عنها هو التوراة التي كتبها مدونوها في الأسر بعد ثمانمائة عام من الحادث، فجاءت القصة مشوهة ومحورة بالشكل الذي يخدم

(1) المرجع السابق، ص 80.

(2) Lods, "Israel., PP. XV, 309.

مقاصد خاصة وأهدافا معينة، فأصبحت في نظر الكثير أشبه بالأساطير الخيالية منها بالحقائق التاريخية.

إن أقدم ما وصل إلينا من معلومات عن قصة الخروج بعد التوراة ترجع إلى عهد يوسفوس المؤرخ اليهودى الشهير (القرن الأول الميلادى) الذي ينقل عن مانيثون المؤرخ المصرى الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد قوله: " إن سبب خروج جماعة موسى من مصر هو رغبة المصريين في أن يتقوا شر وباء تفشى بين العبريين المستعبدين المملقين " وقوله " إن موسى نفسه كان كاهنا مصريا خرج للتبشير بين اليهود " المجذومين " وأنهم علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين " [1].

ومن المتناقضات التي وردت في التوراة عند سردها قصة الخروج أنها بعد أن تصف بمنتهى التفصيل والتطويل والتكرار ممانعة فرعون بالسماح لجماعة موسى بالخروج من مصر تعد لتصفها كما لو كانت طردا من مصر [2].

ويفسر روبنسون قصة الفرعون عدو موسى " بأنها قد انحدرت إلى اليهود من قصة مصرية تركز للصراع الدامى بين أحموسى وفرعون الهكسوس الشرير الذي هزمه أحموس واستكمل تحرير مصر بعد استشهاده والده " سقنن رع " ووفاة أخيه الملك " كاموسى ". فكان اليهود وفقا لهذه النظرية قد واءموا بين صراع أحموسى بطل مصر القومى ضد الهكسوس، وصراع موسى بطلهم القومى المصرى الأصل والذى تخصص بعبء قيادتهم وإخراجهم من مصر " [3].

ولو سلطنا أضواء علم النفس على الفئة التي دونت التوراة، وهى نفسها من بقايا الجماعة التي خرجت من مصر قبل ثمانماية عام، لوجدنا أنها كانت فئة منبوذة مشردة قابعة في زاوية الأسر لا وطن لها، مهيضة الجناح، لا حول ولا قوة لها تستند إليهما، وهذه الفئة نفسها جلست لتدون تاريخ الجماعة التي هى من بقاياها كما سبق وسمعت به من الأسلاف عن خروجها من مصر قبل مدة غارقة في القدم. أجل إنها جلست لتدون هذا التاريخ الذي لمست بعض خيوطه الغامضة، وهى غاطسة في خضم الأحلام التي كانت تساورها وتستأثر بتفكيرها، فتارة تحلم

(1) المصدر السابق، ص 326.
(2) (خر، 6: 1، 11: 1، 12: 31).
(3) الأستاذ شبل، " مشكلة اليهودية العالمية "، ص 38.

بالحصول على القوة التي تسندها، وتارة أخرى بالحياة الذي يرفع من منزلتها، ثم بالوطن الذي تأوى إليه، فاتخذت من إلهها " يهوه " ومن شخصية النبى موسى قوة دينية تتشبث بها على الأعداء كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب عليهما السلام النسب الأصيل الذي يجعلها أهلا لتكون الشعب المختار، ومن كنعان اتخذت عقيدة " الوطن الموعود " الذي يفيض لبنا وعسلا وعزت كل ذلك إلى الإله " يهوه " وإلى إبراهيم ويعقوب وكلهم بريؤون منها.

وينفى العالم الألمانى الدكتور مورتكات ما جاء في أساطير التوراة القائلة بقرابة اليهود والأراميين الذين ينتمى إليهم إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) فيقول: " إن الأبحاث الأثرية برهنت على عدم صحة أكثر الأساطير التي وردت في التوراة كما وهناك أبحاث تبرهن على عكس هذه الأساطير التي تقول بقرابة الأراميين والعبريين (اليهود) [1]. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم فرق بين بنى إسرائيل ذرية إبراهيم الخليل من جهة وبين اليهود من جهة أخرى، وذلك باستعمال اسمين لهذا القوم، فيطلق اسم بنى إسرائيل في مواضع الرضا ويسمون باليهود في حالات السخط عليهم وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولا ريب في أن كل جماعة تكتب تاريخها كما تحب وتوهى لا كما تريد الحقيقة المجردة من كل غرض، فهى تجتهد في إظهار أصلها مقترنا بأسمى الشخصيات من الأجداد التي تتمتع بماضى عريق وشهرة واسعة وفى مجرى التاريخ حوادث كثيرة من مثل هذا التمويه. وهذا يفسر لنا كيفية شيوع التقليد الذي تؤكده الكتابات اليهودية، قديما وحديثا، من أن إبراهيم الخليل غادر العراق ومعه اليهود إلى فلسطين، في حين أن اليهود ظهروا بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف عام وقد قبلت الأجيال ذلك من غير تمحيص للتسلسل الزمنى وملاحظة العصور بحسب تواريخها، ويرى فرويد أن كتبة التوراة أدخلوا الآباء الأولين في ديانتهم واعتبروهم من أسلافهم بغية إعطاء دليل على أن اليهود ليسوا غرباء على أرض كنعان وأنهم لم يدخلوها بصفتهم غرباء، فيقول في ذلك أنهم " لجؤوا إلى هذه الحيلة الماهرة وهى أن إلههم يهوه قد وعدهم بالأرض التي كان يحتلها أسلافهم

(1) مورتكات، " تاريخ الشرق الأدنى القديم "، ص 272.

بالفعل... أولئك الأسلاف الذين كانوا يعبدون يهوه أيضا تحت اسم آخر " [1].

وبهذا يسلط فرويد الضوء على حقيقة هامة هى أن اليهود لم يكن لهم حق تاريخى في دخول أرض كنعان وإنما افتعلوا هذا الحق افتعالا وبذلك يعتبر أن استقرارهم في كنعان بصورة مؤقتة لن يغير من حقيقة كونهم غرباء عليها.

تلك هى الحوافز النفسية التي كانت تحون حول تفكير هذه الزمرة الكهنوتية عندما جلست لتدون تاريخ جماعتها مستمدة من حوادث وشخصيات تاريخية معينة القواعد التي بنت عليها ما عن لها من أهواء وتخيلات للتنفيس عما كانت تشعر به من ضيق ويأس ومن عقد نفسية مستحوذة عليها، فاتخذت من حادث خروج موسى وجماعته من مصر قبل ثمانماية عام، وهى من بقايا هذه الجماعة كما أسلفنا القول في ذلك، قصة مطولة تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الأهداف الثلاثة: الحصول على قوة الإله والنبى، والتشبه برفعة الأصل، والتمتع بالوطن الطيب الموعود. فالقصة في جملتها تدور حول هذه الأهداف الثلاثة. انطلاقا من هذه الأحاسيس والعقد النفسية اتخذ كتبة التوراة من النبى موسى بطلها ومن الإله " يهوه " ربها الخاص بها ونسبوا كل شئ تمنوه وله صلة بمصلحتهم إليهما. كما اتخذوا من يعقوب (إسرائيل) النسب واعتبروه جدهم ومن إبرام (إبراهيم الخليل) الصلة الروحية واعتبروه جدهم الأكبر: وكانت هذه الشخصيات تتمتع بقدسيتها الموروثة وسمو مسلكها الكهنوتى في البلاد.

كما اتخذوا من القواعد الأساسية لديانتهم ما دونه هؤلاء الكتبة على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب والإله الرب وبخاصة ما يتعلق ببدعة " الأرض الموعودة " التي لا أصل لها على الإطلاق وإنما هى من نسج الخيال الروائى، كما أن ما نسبوه إلى جماعتهم من نسب يرجع إلى يعقوب وإبراهيم الخليل هو بدوره من قبيل التفاخر بإرجاع أصلهم المجهول إلى أقدس شخصيتين روحيتين في البلاد.

فقد ورد اسم يعقوب في الكتابات الأرامية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهو عصر يعقوب بالذات، لموضع في منطقة " حاران " (حران حاليا).

كما ورد اسم إبرام وإسرائيل في الكتابات المصرية لموضعين في كنعان،

(1) محمد العزب موسى، " موسى.. مصريا "، ص 71 - 72.

وهذه أسماء كنعانية مقدسة كانت تطلق على الأشخاص والأماكن تبركا بها، وذلك قبل عهد الخروج وقبل تدوين التوراة بألف وخمسمائة عام على أقل تقدير.

ويؤكد ذلك الأستاذ يرميا Jeremias فيقول أن إبراهيم ويعقوب كانا زعيمين دينيين ورئيسيين من كبار رؤساء القبائل وكانا يتمتعان بمكانة قدسية في البلاد (1).

والنظرية التي يعتمد عليها اليوم عدد غير قليل من العلماء هى أن الأسماء التي أطلقها كتبة الأسفار على أبطال قصصهم هى في الأصل أسماء كنعانية لأشخاص لهم مكانتهم السامية في مجتمعهم القديم، عرف كل منهم بإقامته في إحدى الأمكنة من فلسطين فسميت هذه الأماكن بأسمائهم تكريما لأصحابها، وهؤلاء هم الذين اتخذهم كتبة التوراة أسلافا لهم. وهكذا فقد حاك اليهود حول هذه الشخصيات وأمكنة سكناها ما شاء لهم الهوى من القصص والأساطير واحتكروها باسم أسلافهم المزعومين (2)، وفى ذلك يقول الكاتب الفرنسى جان لوى برنار:

" ونتحسس كل التحسس أن الأحبار قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات (فعبرنوا) كل المعلومات (أى جعلوها عبرانية بمعنى يهودية) ولكن لماذا هذه اللصوصية من قبل الصهاينة؟ الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم يثير أعظم ضجة فيه وكل ذلك لاختراع (ملفقة الشعب اليهودى المختار) (3).

ويجب ألا يغرب عن البال بأننا حين نتحدث عما أورده مدونو التوراة في الأسر عن قصة الخروج وغيرها من الادعاءات الخيالية، أننا نواجه كتابات صنفته جماعة بتأثير دوافع وانفعالات نفسية لتحقيق أهداف معينة بعد أن وقعت هذه الجماعة فريسة للعقد النفسية التي انتابتها نتيجة انقراض دولتهم الهزيلة (يهوذا) من الوجود واستحواذ اليأس عليها، فراحت تسبح في خضم تمنياتها بـ (الأرض الموعودة) حين دونت تاريخها بعد أن صبغته بالصبغة الدينية المقدسة

---

(1) Lods, "Israel", P. 256.

(2) س. ناجى، " المفسدون في الأرض أو جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ "، دمشق، 1965، ص 25.

(3) " أسطورة الشعب المختار "، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1969، ص 21.

واتخذته عقيدة وشريعة لمن لاذ بها. والحقيقة هى أن قصة الخروج لم تكن خرافية وإنما هى حادثة تاريخية واقعية تنطوى على خروج جماعة من " مصر بقيادة زعيم دينى وذلك بسبب اضطهادها لاعتناقها ديانة لا يرتضيها سكان البلاد، فبنى مؤلفو التوراة بعد مرور ثمانمائة عام على الحادث ما عن لهم من أساطير وتخيلات خرافية وادعاءات وهمية تنفيسا لإحساساتهم الغارقة في عقد نفسية معينة نتيجة اليأس وتبدد الآمال. وهذا هو أبعد ما يكون من توراة موسى الأصلية التي تعد شريعة خالصة خالية من الأساطير والخرافات والادعاءات الوهمية، فيقول الدكتور أحمد شلبى معلقا على ذلك: " أن اليهود بعد أن انحرفت معتقداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عما أرادوا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن معتقدات " (1).

ثم يضيف الدكتور شلبى إلى ذلك قوله: " وهكذا كتبت أسفار العهد القديم - باسم الله - والله منها براء، إنها في الحقيقة صدى لانفعالات اليهود وأحاسيسهم، وبهذا السبب وبسبب كثرة الكتاب الذين اشتركوا في تدوين العهد القديم كثرت الأخطاء فيه " (2).

وفى تعليق للأديبة أبكار السقاف على سفر الخروج تقول: " يقينا لقد خاض مؤلف سفر الخروج في خضم الترهات خوضا عجيبا لا لأنه قد انتزع من وهاد الربوبية القبلية هذا الرب انتزاعا وجعله لإسرائيل إلها فحسب وإنما لأنه قد افترى على موسى عليه السلام إذ نسب إليه هذه الافتراءات، وقال عنه أنه بهذا الرب أتى وجعله لإسرائيل إلها ثم يعدهم باسمه امتلاك أرض كنعان ميراثا!...) ثم أضافت في ملاحظاتها " لفتة هامة " حيث تقول: " إن الإسلام الذي يبسط جناحيه بالرحمة ويرفرف بالسلام يؤمن بتوراة هى على موسى قد أنزلت ولكنه فرق بين توراة موسى وتوراتهم هذه المفتراة على موسى التي كتبها بيت يهوذا في أعقاب الأسر البابلى.. لذلك حارب محمد صلى الله عليه وسلم اليهود وسماهم كفارا لكذبهم على موسى ولنبذهم إياه كما نبذوا من بعده روح الله عيسى عليه السلام.... وصدق الله العظيم إذ قال فيهم:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

(1) " مقارنة الأديان " ص 229.
(2) " المرجع السابق "، ص 239.

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾} [آل عمران: ١١٢] (1).

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن الإله الذي كان يدعو موسى إلى عبادته هو الإله الواحد خالق السماوات والأرض، ولا صلة لموسى بالإله " يهوه " الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم الشعب المختار، وهو الإله الذي استعاره كتبة التوراة ونسبوا إليه صلته بموسى زورا.

أما حقيقة قصة الخروج فهى، كما يستدل من الأحداث التاريخية، أن جماعة من المصريين أتباع موسى ومن بقايا الهكسوس الذين بقوا في مصر بعد طرد الهكسوس منها وكانوا يعرفون بالعبريو أو العبيرو، بمعنى البدو الرحل الأسيويين الذين اضطروا بعد موت أخناتون إلى الخروج من مصر بسبب ديانتهم المناوئة للوثنية، وقد انضم إلى هؤلاء بعض الأسرى الهاربين والعبيد الفارين من أسيادهم. والظاهر أن فلسطين كانت أقرب ملجأ للعبيد المصريين الفارين من أسيادهم، فيؤكد ذلك الكاتب الفرنسى جان برنار إذ يقول: " لقد كان وضع فلسطين المؤلم قد خلع عليها في الشرق اسم المنطقة التي تؤوى إليها العبيد الآبقين من أسيادهم... " (2) أما النبى موسى الذي خرجت الجماعة بقيادته فهو نفسه مصرى صميم ووصف بأنه قائد مصرى. أما ما دونه كتبة التوراة من أن هذه الجماعة ترجع في أصلها إلى إبراهيم الخليل وأنها من ذرية يعقوب (إسرائيل) وقد سميت ببنى إسرائيل ونسبت كل شئ إلى إلهها " يهوه "، فلا يوجد أى دليل تاريخى أو حتى مجال افتراضى للأخذ به كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومما يدل على أن الجماعة التي سخرها رعمسيس الثانى (1300 - 1232 ق.م) لبناء مدينته المسماة باسمه " رعمسيس " وقد اعتبرت التوراة هذه الجماعة بنى إسرائيل، هى من بقايا الهكسوس وليست من بنى إسرائيل لأن المدينة بنيت في موضع مدينة " أفارس " (هوراس) عاصمة الهكسوس في مصر، وبطبيعة الحال فإن من بقى من الهكسوس في مصر لابد وأن يكون قد تجمع في هذه المنطقة ذاتها فسخروا في بناء المدينة الجديدة في نفس المكان، مع العلم أن المصريين كانوا يعتبرونهم بعد القضاء على حكم الهكسوس في مصر مصدر خطر على الدولة. ومما يؤيد ذلك " أن المؤرخ المصرى القديم مانيثون يشير إلى أن بقايا الهكسوس الذي تخلفوا في مصر بعد زوال حكم الهكسوس من البلاد قد تحصنوا في العاصمة أفاريس ولم يستطع المصريون

(1) أبكار السقاف، " إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة "، ص 175.
(2) " أسطورة الشعب المختار "، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، ص 11.

التغلب عليهم فلجأوا إلى المصالحة على أن يخرج الجميع مع ممتلكاتهم من غير أن يمسوا بسوء ".

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن المصريين كانوا يسمون بقايا الهكسوس " عبريو " أو " عبيرو " وقد صار هؤلاء خطرا على البلاد، بعد تزايدهم فيما إذا انضموا إلى الأعداء، فأجبروا على العمل في بناء الرعمسيوم والبيتوم وعاشوا في مصر عيشة العبودية يعملون في الحقل وفى البناء، وقد ورد اسمهم في برديتين مصريتين تعودان بتاريخهما إلى عهد رع موسى الكبير (رعمسيس الثانى 1300 - 1233 ق.م) إذ ورد في إحداهما، وهى رسالة الكتاب " كويسر " إلى " بكنفتاح " يقول: " اعط الجنود قوتهم واعط أيضا العبريو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى.. الخ " وأما الرسالة الثانية فهى رسالة من " كينا " إلى " كجاناهو " يقول فيها: " أطعت ما أمرنى به سيدى قائلا: اعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضا الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت إليه عناية رع موسى [1].

والمقصود هنا بالعبريو (العبيرو) القبائل العربية البدوية وليس بنى إسرائيل [2]. ذلك مما يثبت أن الجماعة التي عاشت في مصر عيشة العبودية وأجبرت على العمل في الحقل وفى البناء تمثل بقايا الهكسوس وليس بنى إسرائيل كما روى كتبة التوراة. ويؤكد الباحثون على أن هناك دلائل قوية على أن " العبيرو " التحقوا بالهكسوس الساميين عندما غزوا مصر، وهم نفس " الهبيرو " و " الأبيرو " الذين ورد ذكرهم في الكتابات المصرية. وهؤلاء كانوا يدخلون في خدمة الأقوام الغاية في أكثر الأحيان، وكانوا أشبه بالبدو الرحل يتجولون من مكان إلى آخر على أطراف الجزيرة العربية[3]. وذلك ما يؤيد بأن الاضطهاد الذي أدى إلى الخروج من مصر كان موجها ضد معتنقى ديانة أخناتون وأكثرهم من بقايا الهكسوس وليس لهم أية صلة ببنى إسرائيل.

إن حقيقة كون اليهود يرجعون إلى عهد متأخر غير مرتبطين بأية صلة

(1) المطران يوسف الدبس، " تاريخ سورية "، ج1، م2، ص 89؛ أبكار السقاف: " إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة "، ص 155 - 156.

(2) انظر ما تقدم عن " العبيرو " في الفصل الخامس.

(3) K. M. Kenyon, "Amorites and Canaanites", P. 65.

بالتاريخ القديم وأن أكثر الجماعة التي خرجت من مصر هم من بقايا الهكسوس الرعاة جاءت مدعومة ببيانات المؤرخين المصريين القدماء وفى مقدمتهم مانيثون الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود سنة 280 ق.م، فهذا مانيثون الذي نقل كلامه المؤرخ اليهودى يوسفوس يقول ما نصه: " إن هؤلاء الأقوام الذين سميناهم بالملوك الرعاة (أى الهكسوس) بعد أن حكموا في مصر 511 سنة أخرجوا من مصر في زمن حكم تحوطمس (ويبدو أنه يقصد هنا تحوطمس الثالث (1504 - 1450 ق.م). فقد قام ملوك ثيبايس (ولعله يقصد طيبة) ومعهم رؤساء أقاليم مصر الأخرى بثورة ضد الرعاة فنشبت بينهما حرب طاحنة طويلة المدى، وفى عهد أحد الملوك المسمى السفراكموثوس (Alesphragumthosis) تمكن المصريون من إخضاع الرعاة (أى الهكسوس) وطردهم من أكثر أقسام المملكة المصرية إلا أن عددا منهم تخلف وتجمع في منطقة مساحتها عشرة آلاف فدان تسمى (أفاريس) فحصنوها بسور واسع ومنيع حولها وجمعوا هناك جميع ممتلكاتهم وقد حاول تحوطمس ولد السفراكموثوس ومعه 480000 رجل احتلال هذه المنطقة عنوة فضرب الحصار عليها وقطع عليهم باب النجاة ولكنه لم يفلح بالتغلب عليهم فلجأ إلى المصالحة على أن يخرج جميع من في المنطقة من مصر من غير أن يمسوا بسوء فخرجوا وعوائلهم ومعهم ممتلكاتهم وعددهم 240000 نسمة، واتجهوا في رحيلهم من مصر في البرية نحو سورية، ولما كانوا يخشون خطر الأشوريين الذين فرضوا سلطانهم على آسيا اتجهوا نحو فلسطين " [1].

وفى هذا دليل واضح على ان عددا كبيرا من الهكسوس بقى في مصر وتحصن في منطقة عاصمتهم " أوفاريس " بعد إخراج قوات الهكسوس من الأقاليم المصرية الأخرى وظلوا يدافعون عنها بحيث لم يستطع المصريون التغلب عليهم عنوة فاضطروا إلى مصالحتهم والسماح لهم بالخروج من مصر مع عوائلهم وممتلكاتهم من غير أن يمسوا بأذى، والذى يستوحى من خلال هذا المقال أن كتبة التوراة اتخذوا من هذه الحادثة الخيوط التي نسجوا منها قصة الخروج التي ربطوها بتاريخهم القديم وخرجوا بها بصورة منمقة ترجع بأصل اليهود إلى أقدس الشخصيات المعروفة في تلك الأزمان.

أما قصة الاثنى عشر سبطًا الواردة في سفري الخروج ويشوع التي حاكها

(1) W.Whiston, "The Complete Works of Josephus", pp. 543 - 548.

كتبة التوراة فمن المحتمل أنهم استوحوها من نظام الإيرتوسكين السياسي الديني، فقد كان المجتمع الإيتروسكي الذي هاجر من بحر إيجة مثل القبائل الفيليستينة يتألف من اثنتي عشرة قبيلة منها اسم مشتق من عاصمته وكانت هذه القبائل مرتبطة مع بعضها بحلف فدرالي وكانت تعقد اجتماعًا عامًا في كل سنة لتعيين ملك عليها، وكانت هذه القبائل الإيتروسكية قد أسست مدنًا في شمالي وفي وسط إيطاليا من القرن الثامن قبل الميلاد وبلغت المدينة الإيتروسكية أوج ازدهارها في القرن السادس قبل الميلاد[1].

### 4 ـ زمن خروج موسى وأتباعه من مصر:

يعين المؤرخون تاريخ خروج النبى موسى وأتباعه من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين) في حوالى سنة 1290 ق.م، يوم كان رعمسيس الثانى على عرش مصر (1300 - 1233 ق.م) [2] وقدر بعض الباحثين عدد هذه الجماعة آنذاك بحوالى 6000 / 7000 نسمة عند خروجهم من مصر [3]، ولا ندرى على أى أساس توصل هؤلاء إلى هذا الرقم. ويلاحظ أن التوراة تقدر عدد جماعة موسى " بستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد " [4] وهذا من جملة المبالغات التي اختص بها كتبة التوراة التي لا يمكن أن يتقبلها العقل.

(1) انظر دائرة المعارف البريطانية لسنة 1965، 8: 797 - 804)، انظر أيضًا ما تقدم عن الأيتروسكيين على ص 162.

(2) Hitti, "History of Syria", P. 178.

(3) المرجع السابق، ص 179.

(4) (خر، 12: 37).

التصوير رقم (82)
مومياء الملك رعمسيس الثانى الذي خرج في زمنه الموسويون من مصر وهى محافظة على حالتها الأصلية (1300 - 1233 ق.م)

والغريب في ذلك أن الباحثين يعرضون تخمينهم لعدد نفوس أتباع موسى عند خروجهم من مصر من غير أن يتطرقوا إلى جسامة الفرق بين تخمينهم لعددهم وبين العدد الخيالى الوارد ذكره في التوراة، شأنهم في ذلك شأن سكوتهم على النتائج المترتبة على المكتشفات التاريخية التي تشجب أكثر روايات التوراة.

ويلاحظ أن بعض الباحثين حاول أن يربط بين ما ورد في مسلة مرنفتاح، التي تصف حملات هذا الفرعون والتى تشير إلى إخضاعه بلاد اللوبيين ومدن عسقلان وجازر وإسرائيل في فلسطين، بحادث خروج أتباع موسى من مصر [1]. وهذا غير وارد لأن النص صريح فهو يشير إلى أسماء مواضع من فلسطين منها عسقلان وجاز وإسرائيل، وليس ذلك أية علاقة ببنى إسرائيل في مصر أو خروج موسى وأتباعه من مصر. ثم إن العلماء متفقون على أن الخروج حدث في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد في حين أن حملة مرنفتاح وقعت في حوالى سنة 1230 ق.م ويؤيد ذلك العلامة ديورانت فيقول: " وليس في هذه الأقوال ما يدل على أن مرنفتاح هو الفرعون الذي خرج بنو إسرائيل (أتباع موسى) من مصر في عهده، وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى " [2]. وهذا ما يراه فرويد ومابر إذ يؤكدان أن مسلة مرنفتاح لا يمكن أن تمثل من الخروج الذي يجب أن يسبق عهد مرنفتاح [3].

ولقد وجد نص في مخطوطات بحر الميت (وادى قمران) التي تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد [4]، ما يشير إلى استعمال كلمة إسرائيل للدلالة على مدينة أورشليم، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل مدينة إسرائيل التي ورد ذكرها في مدونات مرنفتاح وتم احتلالها في زمنه هى نفس أورشليم؟ ومهما يكن الأمر فإن الشئ الذي يمكن استخلاصه هو وجود مدينة في فلسطين تدعى إسرائيل وهى تعود إلى ما قبل عهد النبى موسى.

### 5 ـ الطريق التي سلطها الموسويون من مصر إلى شرقى الأردن:

ويرجح الباحثون مستندين إلى وصف التوراة أن الطريق التي سلكها الموسويون في خروجهم من مصر هى طريق عمال المناجم القديم إلى سيناء، فارتحلوا من

(1) أبكار السقاف، " إسرائيل.. "، ص 183 - 190.
(2) " قصة الحضارة "، ج2، م1، ص 324.
(3) Freud, "Moses …", P. 78 ; Meyer, "Die Israeliten …", P. 222.
(4) انظر الفقرة 6 من الفصل الثالث.

بلدة رعمسيس في أرض " جاسان " وهى التي عرفت بمدينة المخازن، وتوجهوا إلى " سكوت " [1]، ومن " سكوت " نزلوا في " إيثام " في طرف البرية [2]، نزلوا أمام " فم الحيروت " بين " مجدل " والبحر أمام " بعل صفون " مقابلة عند البحر [3]، وسعى المصريون وراءهم وأدركوا وهم نازلون عند البحر عند " فم الحيروث " أمام " بعل صفون ". ثم ارتحلوا من بحر سوف وخرجوا إلى " برية شور " [4]، ووصلوا إلى " مارة " [5]، ومن " مارة " ذهبوا إلى إيليم "، وهناك اثنتا عشر عين ماء فنزلوا عند الماء[6]. ثم رحلوا من " إيليم " إلى برية سين التي بين " إيليم " وسيناء، ثم ارتحلوا من برية سين ونزلوا في " دفقة " [7] و " دفقة " هذه تقع في مدخل جبل سيناء في وادى فيران التي كانت فيها مناجم النحاس التي كان يستثمرها المصريون منذ أقدم الأزمنة. ثم ارتحلوا من " دفقة " ونزلوا في " الوش " ومن " الوش " نزلوا في رفيديم [8]. وفى " ريفيديم " دارت أول معركة بين الموسويين وبين العمالقة سكان البلاد [9]. ومن " رفيديم " ارتحلوا إلى برية سيناء حيث نزل الموسويون مقابل الجبل [10]، والجبل هو جبل سيناء "جبل موسى " الذي نزلت فيه الشريعة، وهنا التقى موسى بزوجه صفورة وابنه وحميه يثرون الذين جاءوا من مديان للالتحاق به [11].

(1) (خر، 12: 37).
(2) (خر، 13: 2).
(3) (خر، 14: 1 - 2).
(4) (خر، 15: 22).
(5) (خر، 15: 23).
(6) (خر، 15: 27).
(7) (عد، 33: 12).
(8) (عد، 33: 14)؛ (خر، 17: 1).
(9) (خر، 17: 13).
(10) (خر، 19: 2).
(11) (خر، 18: 1 - 6).

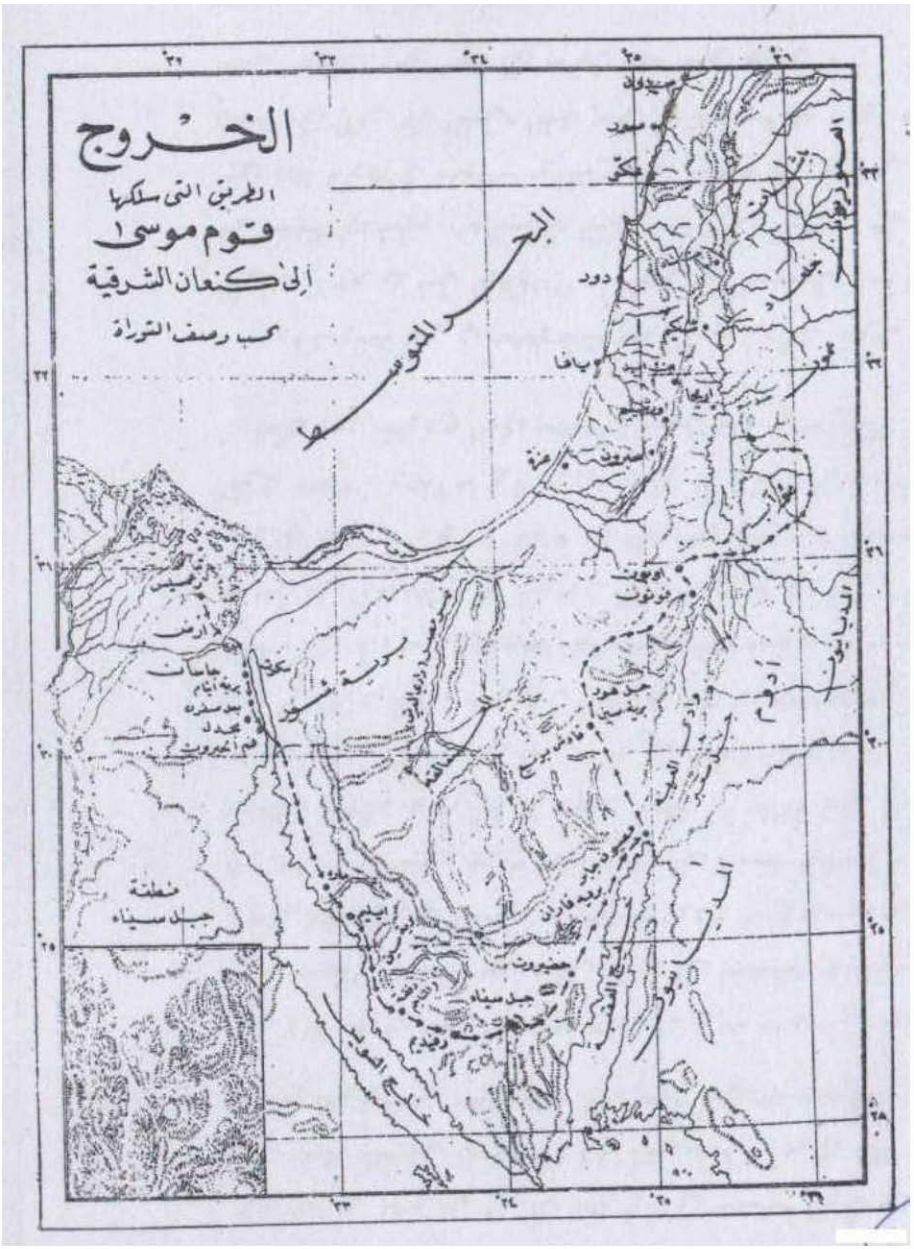


المرتسم رقم (17)
الخروج الطريق التي سلكها قوم موسى إلى كنعان الشرقية بحسب وصف التوراة

وقد بقى الموسويون في برية سيناء حوالى السنة، ثم ارتحلوا منها في السنة الثانية بأمر الرب [1]، إلى " قادش برنيع " الواقعة على بعد 150 ميلا من سيناء شمالا سالكين الطريق الذي يمر ببلدة " حضيروت " على الضفة الغربية لخليج العقبة ومن " حضيروت " نزلوا في " برية فاران " [2]، ثم توجهوا إلى " عصيون جابر " الواقعة عند آخر نقطة من ساحل خليج العقبة مارين بعدد من القرى [3]، ثم رحلوا من " عصيون جابر " إلى " برية صين " التي هى " قادش برنيع " [4]، ومنها نزلوا في " جبل هور " في طرف أرض أدوم [5] (انظر المرتسم رقم 17).

### 6 ـ غزو الموسويين لشرقى الأردن:

ولما كان الموسويون في " فاران " أرسل موسى رجالا ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم: " اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هى، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف، قليل أم كثير،وكيف هى الأرض جيدة أم رديئة " [6]. وأتوا وقالوا لموسى قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقا أنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها (وقد أتوا بعنقود من العنب مع بعض الرمان والتين اقتطفوه من منطقة حبرون) غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا [7]، وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق فكانوا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم [8]. وهذه الخطوة التي خطاها النبى موسى بإرسال الجواسيس إلى داخل كنعان هى بحد ذاتها دليل واضح على أن موسى كان ملما بالقواعد العسكرية التي توجب الاستطلاع قبل الهجوم أو التحرك ضد العدو.

وكان لوصف الكنعانيين بالجبابرة والأشداء وقع سيّئ في نفوس الموسويين فتذمروا على موسى وعلى هارون أخيه فصعدوا إلى الجبل رغم تحذيرهما فنزل

(1) (عد، 10: 11 - 12).
(2) (عد، 12: 16).
(3) (عد، 33: 16 - 36).
(4) (عد، 33: 36).
(5) (عد، 33: 37).
(6) (عد، 13: 17 - 18).
(7) (عد، 13: 27 - 28).
(8) (عد، 13: 33)؛ (تث، 1: 28).

العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم [1]، ولم توضح التوراة الوضع بعد هذه المرحلة فقد جاء كلامهما غامضا، غير أن فقرة تشير إلى ان الرب أتاه الموسويين في البرية أربعين سنة حتى فنى الجيل الذي فعل الشر في عينيه:

" فحمى غضب الرب على إسرائيل وأتاههم في البرية أربعين سنة حتى فنى كل الجيل الذي فعل الشر في عينى الرب " [2].

ونخلص من هذا إلى أن الموسويين لم يقوموا بأى غزو أو فتح حتى جاء الجيل الجديد بعد أربعين سنة، فقد قضوا هذه الفترة مع موسى في منطقة قادش التي كانت آخر محطة نزلوها في جوار جبل هور في طرف أرض أدوم، وهناك مات هارون في السنة الأربعين لخروجهم من أرض مصر [3]. وقد كان الموسويون في هذه الفترة في مأمن من أى خطر يهددهم من جهة الشرق لأن الأشوريين كانوا خاضعين آنذاك لحكم الكاشيين في العراق، كما أن الأراميين لم يكونوا قد بلغوا من القوة ما يشجعهم على القيام بمغامرة ضدهم.

وإذا أخذنا بمدونات التوراة يكون الغزو الحقيقى قد بدأ بعد مرور أربعين سنة قضاها موسى وأتباعه بالبرية، وعزت التوراة سبب ذلك إلى غضب الرب على إسرائيل (قوم موسى) حتى فنى كل الجيل الذي فعل الشر في عينى الرب. والسبب الحقيقى على ما نراه من مجرى الأحداث التاريخية، هو أن أرض كنعان كانت آنذاك ساحة حرب بين رغمسيس والحيثيين، فقد اصطدم الطرفان في معركة ضارية خاضها رعمسيس ضد غريمه " مواتاليس " ملك الحيثيين في قادش (شمال فلسطين) كاد الحيثيون أن ينتصروا فيها، إلا أن رعمسيس تمكن من الصمود بشجاعة أمام الحيثيين حتى وصلته الإمدادات فواصل القتال إلى أن انتهى الصراع بعقد صلح بين العاهلين، ورعمسيس والملك الحيثى حاتوشيلى الثالث، والتوقيع على ميثاق دفاع مشترك ضد أى غزو خارجى، أو ثورة داخلية سنة 1269 ق.م، لذلك تجنب موسى التوغل في داخل فلسطين.

والظاهر من وصف التوراة أن موسى كان قد عقد العزم بعد انقضاء الأربعين سنة على غزو كنعان من جهة شرقى الأردن لصعوبة اختراق الجبهة

(1) (عد، 14: 42 - 45).
(2) (عد، 32: 13)؛ (تث، 2: 7).
(3) (عد، 33: 38).

الغربية. وكانت في هذه الجبهة خمس ممالك: الأولى مملكة عوج في باشان وهى تبدأ في أقصى الشمال عند حدود جبل حرمون (جبل الشيخ حاليا) وهى بيد الرفائيين والثانية مملكة سيحون في جلعاد وهى بيد العموريين، والثالثة مملكة عمون وقد استولى عليها العموريون من العمونيين، والرابعة مملكة موآب بيد الموآبيين والخامسة مملكة أدون بيد بنى عيسو. وقد تم للموسويين بقيادة موسى الاستيلاء على ثلاث من هذه الممالك ولم يتحرشوا بمملكتى موآب وأدوم لمناعة تحصيناتهما، وقد عزت التوراة ذلك إلى ما أمر به الرب.

وقد علق المارشال اللورد مونتغمرى على سيرة موسى ومهمته كقائد بقوله: " إن المهمة التي ألقيت على عاتق موسى كانت في غاية الصعوبة - وهى قيادة بنى إسرائيل (قوى موسى) الذي كانوا شعبا من الرعاة، من مصر إلى أرض كنعان - الأرض التي هاجروا إليها، وإنى لا أصدق أبدا أنهم بعد أن خرجوا من مصر، هاموا على وجههم من غير هدى في صحراء سيناء أربعين سنة - أى تاهوا، وأعتقد أن موسى كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أن يحقق الجزء الثانى من مهمته، والذى كان ينطوى حتما على قتال كثير، إلا إذا مات المتبرمون القدامى من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مطعم بروح القتال، ومدرب على الحرب، ولقد أدرك أنه ليس في الإمكان تحويل أناس مستعبدين إلى شعب مقاتل في أسابيع قليلة أو حتى في أشهر. وأنه لابد من روح جديدة تبعث فيهم - وهو أمر يتطلب وقتا لا يستهان به، وكان من العبث الإقدام على غزو أرض كنعان من غير خطة سليمة، خطة يمكن تنفيذها بسرعة والوصول إلى الهدف المنشود بغير انتكاسات، وكان اجتناب الانتكاسات أمرا مهما، إذ أن الانكسار في المعركة كان يؤدى في الغالب إلى فقدان الثقة بقيادة موسى... لذلك قرر موسى أن يلغى خطته الرامية إلى التقدم نحو أرض كنعان من الجنوب، وصمم بدلا من ذلك أن يجعل بنو إسرائيل (أتباعه) يتنقلون في الصحراء مدة من الزمن تكفى لتحويلهم إلى قوة وطنية صلبة مدربة على القتال [1]. ثم ينتهى منتوغمرى إلى رأيه في كفاية موسى القيادية فيقول: " ما عسى أن نقوله عن موسى قبل أن نتركه، ما كانت منجزاته في القيادة؟ لقد ربته أميرة مصرية وثقف ثقافة عالية. وربما كانت له علاقة ما بالجيش المصرى. ومهما يكن الحال، فقد كان ماهرا في الحكم على

(1) المارشال اللورد مونتغمرى / " السبيل إلى القيادة "، الترجمة العربية، الطبعة الثانية، ص 274 - 276.

ما يمكن وما لا يمكن إنجازه في الحرب بالموارد المتيسرة، وقد أبى أن يقحم إسرائيل (أتباعه) في القتال قبل أن يستعد لذلك فالجنود يتبعون دائما القائد الناجح، وفى الحقل التعبوى (التكتيكى) أدرك أن الوقت المصروف في الاستطلاع لا يذهب سدى - ولاشك أن ذلك ينطبق على الاستطلاع الذي كان قد أمر به [1].

## 7 - الغموض في موت موسى:

ومن أغرب ما ابتدعه كتبة التوراة عن وفاة موسى أنهم اتهموا هذا الرسول الجليل كما اتهموا أخاه هارون بخيانة الرب فعاقبهما الرب بالموت " كلم الرب موسى قائلا: مت في الجبل كما مات هارون أخوك في جبل هور... لأنكما خنتمانى.. عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدسانى... فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيتها لبنى إسرائيل [2]... يشوع بن نون هو يدخل إلى هناك [3].. لا تعبر هذا الأردن وأما يشوع هو يعبر... " [4] وقد كان من الطبيعى في ضوء ما تقدم أن تثار تساؤلات فيما يتعلق بكيفية موت موسى، هل مات موتا طبيعيا، أم هل أمر الرب بموته حقا؟ فقد استخلص الباحث الألمانى " سيللين " من بعض الفقرات في سفر هوشع من العهد القديم " أن هناك دلائل بأن موسى مات شهيدا اغتاله الكهنة الذي قاوموه فهدموا كل ما نادى به من تعاليم دينية تقريبا " [5]. وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذي اغتال موسى حيث استصحبه إلى أعلى الجبل ثم عاد بدونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تم تنفيذه وفقا لأمر الرب.

وإذا كان موسى في نظر التوراة التي بين أيدينا خائنا فكيف تنسب هذه التوراة إليه وتسبغ عليها صفة القدسية؟ هذا هو السؤال الذي تلقيه الكاتبة الأديبة أبكار السقاف التي تقول: " إن هذه التوراة التي بين أيدينا، وهى مصدر العقيدة للدين اليهودى الحالى، تعتبر موسى خائنا وأن الرب غضب عليه وأمر بموته

(1) نفس المرجع السابق.
(2) (تث، 32: 50 - 53).
(3) (تث، 1: 38).
(4) (تث، 3: 28).
(5) Lods, "Israel", p. 308; E. Sellin, "Mose und seine Bedeutung fur dieisr - jud Rel"; Freud, "Moses…", p. 59.

جزاء خيانته، فكيف بعد ذلك، يمكن أن ينسب هذا الدين اليهودى إلى موسى؟! ".

ويقول فرويد: " إن ما استخلصه سللين عن اغتيال موسى على أيدى أتباعه محتمل جدا لأن موسى الذي تربى في مدرسة أخناتون لابد أن يكون قد استعمل العنف والقسوة على طريقة أخناتون في فرض شعائر دينية صارمة على أتباعه ولعلها أكثر صرامة من تلك التي فرضها سيده على الشعب المصرى مما أدى إلى أن يلقى موسى نفس المصير الذي لقيه أخناتون قبله وهذا مصير كل عظماء الرجال أصحاب مبدأ أو عقيدة ".

ويضيف إلى ذلك قوله: " إن الطبع المسالم الذي يتصف به المصريون بوجه عام ساعد على بقاء أخناتون على قيد الحياة حتى لقى حتفه بصورة طبيعية، ولكن الساميين ذوى الطباع الخشنة التي تقرب من الوحشية لم يصبروا حتى يموت موسى فثاروا عليه وقتلوه [1].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا هذه الحقيقة، أى قتل اليهود للأنبياء:{وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [آل عمران: ١١٢].

## 8 ـ عهد يشوع:

وقد انتقلت القيادة إلى يشوع بعد وفاة موسى، وتقول التوراة أن الرب أمره بعبور الأردن إلى الجانب الغربى وقد قضى على 31 ملكا من ملوك كنعان وكانت أريحا أولى المدن الكنعانية التي احتلها الإسرائيليون (الموسويون) " فحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب " [2].

ومن بين المدن التي استولى عليها يشوع: " بيت إيل " و " عاى " و " لخيش " و " عجلون " و " حبرون " و " دبير. إلا أن الفلسطينيين [3] المتحصنين في مدنهم الساحلية بين غزة ويافا صدوا تقدم الموسويين غربا، وكان هؤلاء الفلسطينيون متفوقين على الموسويين في معداتهم الحربية إذ كانوا يعتمدون على

(1) S. Freud, "Moses …", PP. 76 - 77.

(2) (يش، 6: 21، 24).

(3) انظر ما تقدم عن هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول.

أسلحة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنع الدروع والأسلحة الأخرى منه.

لذلك لم يجرؤ يشوع على محاربتهم فتجنبهم كما تجنب المدن المحصنة ومنها أورشليم لمناعتها. أما المدن الشمالية (الكنعانية الفينيقية) فكانت في حرز حريز لمناعتها وراء سلسلة جبال لبنان وكانت موانيها على ساحل البحر تساعدها على تنمية مصالحها التجارية والاقتصادية مع الخارج، وكان دخول عنصر الحديد في البلاد خلفا للنحاس والقصدير قد فتح لها عهدا جديدا فأخذت هذه المدن تمارس صناعة الحديد لصنع الأسلحة وبيعها وذلك باستيراد الحديد الخام من بلاد الحيثيين فتقدمت صناعيا وازدهرت تجارتها [1].

ومما ساعد على تقدم الفتح في بلاد كنعان بقيادة يشوع ملاءمة الظروف السياسية السائدة آنذاك. فقد كانت البلاد منقسمة على نفسها تتصارع فيما بينها دويلات لا يحصى عددها فيها حكام إقطاعيون مستبدون همهم الوحيد الحفاظ على سيطرتهم. ويرجع توطيد دعائم هذا النظام الإقطاعى في هذه المناطق إلى عهد الهكسوس الذين دام حكمهم فيها وفى مصر السفلى حوالى قرنين من الزمن بين سنة 1785 وسنة 1580ق.م [2]. ولما أخرج المصريون الهكسوس من بلادهم لاحقوهم في مستعمراتهم الشرقية واستولوا عليها ومنها بلاد كنعان التي ضموها إلى مملكتهم، ولكن المصريين لم يحاولوا تغيير الأوضاع السياسية في هذه المناطق فتركوها على حالها، وكان جل اهتمامهم جمع الجزية من البلد على يد مأمورين متفسخين، وفضلا عن ذلك أن مصر كانت عندما غزا يشوع بلاد كنعان عاجزة عن التدخل ومد ملوك كنعان بمساعداتها. ومع ذلك تشير المصادر المصرية على قيام مرنفتاح ابن رعمسيس الثانى (1233 - 1223 ق.م) بحملة عسكرية على فلسطين مما يدل على أن يشوع لم يحقق النصر الذي نسبته التوراة إليه على المدن الكنعانية.

ونستخلص من رواية التوراة أن أورشليم كانت من بين المدن التي لم يستطع يشوع احتلالها لمناعتها وصلابة سكانها اليبوسيين. ويؤكد ذلك الأستاذ بيرون في مقاله عن تاريخ أورشليم بقوله: " ومن الجلى الواضح أن مدينة أورشليم كانت قبل مجئ الإسرائيليين (الموسويين) بقيادة يشوع مدينة كنعانية خالصة على جانب

(1) Heller, "The Bible as History", PP. 155 - 159.

(2) انظر ما تقدم عن هجرة الهكسوس في الفصل الأول.

كبير من الأهمية والمنعة " [1].

### 9 ـ عهد القضاة:

ويستدل من عرض التوراة لوضع الموسويين في كنعان بعد موت يشوع على أنهم أصبحوا مهددين بالفناء وقد اضطروا أن يخلوا بعض المدن التي استولوا عليها، فضاق بهم الأمر جدا حتى أقام لهم الرب قضاة ليخلصوهم من يد أعدائهم، لذلك سمى هذا العصر بعصر القضاة وقد استمر حسب تقدير المؤرخين حوالى قرن كامل بين سنة 1125 و 1025ق.م [2].

وكان عهد القضاة عهدا مضطربا تخللته عدة نكسات كادت تهدد الموسويين في فلسطين بالفناء إذ تعترف التوراة أن الكنعانيين والفلسطينيين أصبحوا من القوة بحيث تمكنوا من إخضاع الإسرائيليين (الموسويين) تحت حكمهم في فترات متواصلة قبيل وخلال عهد القضاة. فكان أول من أخضعهم كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين ثمانى سنين [3]، ثم هجم عليهم بنو عمون والعمالقة فضربوهم واستولوا على مدينة أريحا (مدينة النخيل) [4]، ثم ضايقهم يابين ملك كنعان في حاصور بشدة عشرين سنة [5]، واستعبدهم بنو عمون والفلسطينيون ثمانى عشرة سنة [6]، وفى أواخر عهد القضاة أوقع الفلسطينيون بالإسرائيليين (الموسويين) هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على " تابوت العهد " [7] وخضع الإسرائيليون (الموسويون) إلى حكمهم أربعين سنة حتى ظهر شمشون فحارب الفلسطينيين [8].

### 10 ـ لم يستطع الموسويون طرد سكان فلسطين:

وتعترف التوراة بصمود سكان فلسطين أمام الموسويين على أراضيهم إذ تؤكد مرارا وتكرارا بأن الإسرائيليين (الموسويين) لم يستطيعوا طرد سكان

---

(1) S.W. Perwone, "Jerusalem", Ency. Brit. Vol. 12, p. 1007.

(2) Hitti, "History of Syria", P. 120.

(3) (قض، 3: 8).

(4) (قض، 3: 13).

(5) (قض، 4: 3).

(6) (قض، 10: 8).

(7) (1 صم ن 5: 1). انظر ما تقدم عن تابوت العهد في الفصل الثالث.

(8) (قض، 13: 1).

فلسطين الأصليين من أراضيهم وقد سكنوا وشاركوهم في وطنهم، فتذكر أنهم " سكنوا في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحيويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساءا وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم " [1]. وهذا دليل قاطع على بقاء سكان فلسطين على أراضيهم واستمرار سيادة الثقافة الكنعانية في البلاد. وإليك التأكيدات التي وردت في التوراة بهذا المعنى:

1- " لم يطرد بنو إسرائيل (الموسويون) الجشوريين والمعكيين (وهم من قبائل الجانب الشرقى من الأردن) فسكن الجشورى والمعكى في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم " [2].

2- " لم يطرد منسى أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان يبلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها فعزك الكنعانيون على السكن في تلك الأرض، وكان لما تشدد إسرائيل أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية ولم يطردهم طردا " [3].

3- " ونفتالى لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض " [4].

4- " زبولون لم يطرد سكان قطرون ولاسكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه " [5].

5- " أفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر " [6].

6- " وأخذ يهوذا غزة وتخومها وأشقلون وتخومها وعقرون وتخومها... ولكن لم يطرد سكان الوادى " [7].

7- " لم يطرد أشير سكان عكو (عكا) ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب وحلبة وافيق ورحوب فسكن الأشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض لأنهم

---

(1) (قض، 3: 5 - 6).
(2) (يش، 13: 13).
(3) (قض، 1: 27).
(4) (قض، 1: 23).
(5) (قض، 1: 30).
(6) (قض، 1: 29).
(7) (قض، 1: 18 - 16).

لم يطردوهم " [1].

8- " الحويون سكان جبعون صالحوا إسرائيل (الموسويين) وكانوا في وسطهم " [2].

وتؤكد التوراة أيضا أن الإسرائيليين (الموسويين) لم يستطيعوا طرد اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين، واليبوسيون قبيلة من القبائل الكنعانية بقوا في مدينتهم وفى أرضهم في جميع الظروف، وتعترف التوراة صراحة بأن بنى يهوذا لم يستطيعوا طرد سكان أورشليك، وهذا نص ما ورد فيها بهذا المعنى:

" وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم " [3].

وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم " [4].

ولعل المقصود بـ " إلى هذا اليوم " إلى ما بعد السبى البابلى وهو زمن تدوين التوراة. وأوضح دليل على أن أورشليم بقيت في أيدى سكانها الأصليين هو أن الملك داود لما أراد أن ينشئ الهيكل في القدس قام بشراء قطعة الأرض التي اختارها لهذا الغرض من أصحابها اليبوسيين [5].

وليس هناك ما يشير إلى أى حدث تاريخى اضطر سكان القدس غير الإسرائيليين (الموسويين) بسببه مغادرة مدينتهم إذ لم يصبهم شئ من تيارات التشريد والتقتيل والسبى التي أصابت الإسرائيليين (الموسويين) [6]. والدليل على احتفاظ سكان البلاد الأصليين بأرضهم أنهم تمكنوا من إخضاع بنى إسرائيل (الموسويين) لحكمهم قبيل وخلال عهد القضاة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما المدن الفينيقية الكنعانية الأصل فقد حافظت على استقلالها السياسى لما كان لها من تحصينات قوية على الجبال الساحلية التي أقيمت عليها فلم تخضع إلى الموسويين في أى دور من أدوارها، كما أن الفلسطينيين قاوموا الموسويين

(1) (قض، 1: 31 - 32).
(2) (يش، 10: 1).
(3) (قض، 1: 21).
(4) (يش، 15: 62).
(5) (2 صم، 24: 24 - 25).
(6) انظر الملحق الأول، " أورشليم في أقدم عصورها.

مقاومة عنيفة ولم يستطع الموسويون إخضاعهم إلا في فترات قصيرة، هذا من جهة الغرب، أما من جهة الشرق فقد كانت أمارات أدوم وموآب وعمون مستقلة في أكثر أدوار الموسويين التاريخية.

ومن الغريب حقا أن الكتاب اليهود عندما يتطرقون إلى موضوع الكنعانيين يدعون أن اليهود أبادوا الشعب الكنعانى ولم يبق له وجود [1]، وذلك على الرغم من أن التوراة ذاتها تؤكد مرارا وتكرارا أن اليهود سكنوا إلى جانب الكنعانيين، إذ لم يستطيعوا طردهم من ديارهم كما تقدم شرحه، مما يدل على أن الموسويين لم يدخلوا فلسطين كغزاة حاكمين بل سكنوا بين أهل البلاد الأصليين كلاجئين، أما الروايات القائلة بأنهم دخلوا فلسطين كمقاتلين فهى تناقض مدونات التوراة المتقدمة. واستنادا إلى نظرية الكتاب اليهود بإبادة الشعب الكنعانى كان يرى هرتزل " أن الحل البسيط للقضية اليهودية هى عبارة عن منح أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض ".

ولقد صدر مؤخرا كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان " غزو الإسرائيليين لبلاد كنعان لمؤلفه الأستاذ ييفين قام بطباعته المعهد الهولندى في استامبول، وخلاصة ما توصل إليه مؤلفه من بحثه هو أن الغزو الموسوى لبلاد كنعان لم يقم على أساس من التخطيط المسبق تم تنفيذه دفعة واحدة نتيجة هجوم منظم كما ورد في سفرى العدد ويشوع بل كان عبارة عن موجات متتالية من الهجرات إلى كنعان تمت بشكل تدريجى مستهدفة الاستقرار على الأرض والحصول على ما يسد الرمق بواسطة الفلاحة والزراعة. ويؤكد المؤلف أن هذه النتيجة التي توصل إليها في بحثه أصبحت الآن مقبولة بوجه عام وتلقى الدعم الكلى [2].

### 11 ـ عهد الملوك:

وتصف التوراة كيف طلب الموسويون من صموئيل آخر كبار القضاة أن يعين لهم ملكا أسوة بالممالك الكنعانية والفلسطينية فعين لهم الملك المنشود، فكان شاول[3]، ولكن كان على الملك الرضوخ التام لأوامر يهوه المنقولة على أيدى الكهنة رجال الدين ولما أهمل الملك الرضوخ التام خذله الرب وأوقعه بيد أعدائه الفلسطينيين فاندحر أمامهم وقتل هو وأولاده الثلاثة في المعركة. وكان حكم شاول

(1) انظر هانس كوهن، " الصهيونية وفكرة القومية اليهودية "، ص 209.
(2) انظر عنوان الكتاب في ثبت المراجع الأجنبية.
(3) (1 صم، 8: 1 - 5 و 19 - 20).

قد استمر حوالى 15 سنة بين سنة 1025 و 1010 ق.م [1].ثم تقلد الحكم الملك داود خلفا لشاول فاستطاع هذا الملك على قول التوراة أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية كما تمكن من إخضاع دويلات أدوم وموآب وعمون واستولى على مملكة صوبا الأرامية الغنية بمناجم النحاس وأخضع ملكها هدد عزر بن رحوب وأخذ منها " نحاسا كثيرا جدا " [2]. وقد اتخذ داود أورشليم بعد استيلائه عليها من اليبوسيين عاصمة له وبنى فيها قصره الملكى وأقام فيها معبدا للإله يهوه. وقد استمر حكم داود زهاء 40 سنة بين سنة 1010 وسنة 971 ق.م، منها سبع سنين في حبرون والباقى في بيت المقدس [3]، ثم انتقل الحكم إلى الملك سليمان بن داود وهو الذي اشتهر ببناء الهيكل في أورشليم.

أما الوصف الذي جاء في التوراة واعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. والحقيقة هى أن مملكة سليمان التي تبجح اليهود بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادها الفراعنة الذين كان أهم ما يهدفون إليه من وراء هذا الإسناد حماية حدودهم الشرقية من غارات الأقوام الطامعة بمصر وفى مقدمتهم الأشوريون.

وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة في البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكاناته الاقتصادية وذلك بإغداقه في إقامة الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة، فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب كما أثقل كاهل خزينته بالديون المتراكمة حتى اضطر أن يقدم إلى حيرام ملك صور عشرين مدينة في أرض الجليل مقابل الديون التي تراكمت عليه [4]، ولما عثر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية طلب معونة حمية فرعون مصر فأرسل إليه جيشا مصريا احتلها وسلمها إليه مهرا لابنته زوج سليمان [5].

ويعلق المؤرخ المشهور " ويلز " (Wells) على التمادى في الخيال والمبالغات في تصوير اتساع حدود مملكتى داود وسليمان، فيقول في ذلك: " ولا

(1) (1 صم، 31: 1 - 10)؛ (1 أخ، 10: 1 - 10)؛ (2 صم، 1: 6 - 10).
(2) (2 صم، 8: 3 - 8).
(3) (1 مل، 2: 1)، (1 ص، 2: 11)؛ (2 صم، 5: 4).
(4) (1 مل، 9: 16).
(5) (1 مل، 9: 16).

يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يوما بيد العبرانيين (اليهود). ويلوح أن داود وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه " [1].

ويرى الباحثون أن العوامل التي ساعدت على توطيد ملك داود وتهيئة الظروف الملائمة لبعض الاتساع هى " إن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام. وكانت أمور الدولة الأشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئا من حرية الحركة والنشاط والتبسط وممارسة السيادة " [2].

ويشرح " ويلز " كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان صورة تفوق الواقع بكثير قال: " من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكا صغيرا يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ونهب معظم ما فيها من كنوز، ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام، وهم يقولون أن الكبرياء القومى لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها " [3].

ويقول " ويلز " أن سليمان تحالف مع حيرام ملك صور، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقا يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبنى فيه السفن " [4]. ويضيف ويلز معلقا على إسهاب التوراة في تصوير مجد سليمان وفخامته: " إن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر كان مشغوفا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعا بتمجيد حكمه. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى بل الإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته، ولكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحوطمس الثالث أو

(1) " معالم الإنسانية "، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص 279 و 283.
(2) الدكتور شلبى، " مقارنة الأديان "، ص 57.
(3) الدكتور شلبى، " المصدر السابق "، نقلا عن كتاب ويلز " تاريخ العالم "، ص 93.
(4) " معالم تاريخ الإنسانية "، الكتاب الرابع، ص 284.

رعمسيس الثانى أو نبوخذنصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات. إذ لم يتجاوز سليمان بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، فأما مملكته فهى رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت " [1]

أما هيكل سليمان الذي تعده التوراة مثلا لأوج عظمة سليمان هو من صنع الفينيقيين الصوريين وقد بنى على نمط المعابد الكنعانية، كما أن قصر سليمان في أورشليم من صنع الفينيقيين أيضا [2]، وحتى تسمية " الهيكل " مأخوذة من كلمة " هيكال " الكنعانية [3]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومما يذكر في هذا الصدد أن التوراة تشير إلى أن سيطرة الملك داود امتدت إلى نهر الفرات [4]، ولاشك أن هذا الادعاء مستبعدا جدا وهو يعد من قبيل المبالغة والخيال شأنه شأن الإسهاب في وصف منشآت سليمان بمنتهى الضخامة والفخامة.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسى والعمرانى في فلسطين هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أى أثر لهذا الدور. والتوراة كما أسلفنا كتبت في وقت لاحق وكتب أكثرها في الأسر في المحيط البابلى والسومرى الذي اعتاد أهله وصف أعمال الآلهة الخارقة العادة على نمط الأساطير الخيالية للتأثير بها على نفوس الجماهير، فقلد كتبة التوراة الأقوام الذين عايشوهم من العهد القديم في وصف عظمة داود وسليمان على طريقة كتابة الأساطير البابلية والسومرية والكنعانية في وصف آلهتهم التي ألفوها ووقفوا عليها وكانت هى مستنداتهم ومصادرهم في كتابة التوراة، فتأثروا بها كليا كما نشاهدها في وصف الخوارق التي نسبت للشخصيات الأخرى الواردة في التوراة مثل شمشون وغيره من الشخصيات المقدسة.

ويكفى أن ننظر إلى بعض أقوال التوراة، مثل قولها بأن الجماعة التي رافقت النبى موسى في خروجها من مصر بلغت " ستمائة ألف ماش من الرجال

(1) المرجع السابق، ص 286 - 287.
(2) حتى، " تاريخ سورية "، 204.
(3) طه باقر، " مقدمة.. "، ج2، ص 289.
(4) (2 صم، 8: 3 و 8 و 12)؛ (1 أخ، 18: 3 - 8).

عدا الأولاد " [1] في حين أن الباحثين قدروا هذه الجماعة بستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة فقط [2]. لتكوين فكرة عن مدى مبالغات التوراة وأوصافها الخيالية إلى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره العقل.

ويرى الكاتب الفرنسى جان لوى برنار أن سليمان لم يكن يهوديا وإنما كان أشوريا " كان نائب الملك معينا من الخارج " وهو شلمانصر الذي (عبرنه) اليهود فحولوا اسمه إلى سليمان وقد اغتيل على يدهم. فيقول في بحث مطول: "... وبصورة عامة لعبت فلسطين دور نائب الملك التابع، ومهما أوغلنا في تاريخها القديم لا نجد أنها عاشت أبدا مستقلة، وحتى في أيام داود، الذي تولى الحكم في القدس، كانت تدور في الفلك المصرى العملاق، وكل فرعون كان يعين نائبا له يختاره قطعا من العنصر المحلى. والرومان قد حذو حذو الفراعنة، فهيرودس مثلا كان من عنصر آخر، كان أدوميا على تعبير العهد الجديد، وقد قاسى هذا العنصر من كره اليهود له.

" وكان فرعون يعين في محميته (نائب الملك) ممن ليسوا من أهل المنطقة، ثم يزوجه امرأة من الطبقة الأرستقراطية المصرية. وامتد هذا الإجراء حتى شمل الهاربين والخونة والمرتدين السياسيين وكذلك الرهائن من الأمراء، وكانوا ينشئونهم على الطريقة المصرية ويزوجونهم بالطريقة نفسها.

" وبهذا الخصوص أقول إن أفضل مثل يضرب دون نزاع هو مثل سليمان ففى عهده دخلت سطوة مصر العسكرية في دور الاضمحلال، شأنها في ذلك شأن سطوة بابل، أما الكوكب الذي توسط كبد السماء فهو الكوكب الأشورى، فتحولت " نيابات الملك " التابعة من يد إلى أخرى، تحولت في فينيقية كما تحولت في فلسطين.

" وأرجح كون سليمان ساميا، كما كانوا ساميين أولئك الأشوريون المتحدرون من جبال زاغروس، ومن صياصى القفقاس ومعهم شطر من الأكراد. كل هؤلاء هبطوا إلى ما بين النهرين ليخضعوها بعد أن دب في أوصالها الانحلال.. وقد تمثلوا لغتها وثقافتها، والثقافات المسماة سامية نابعة من الجزيرة العربية الممعنة في الحضارة.. وسليمان من معدنهم، فهو نصف عربى (وهذه

(1) (خر، 12: 37).
(2) حتى، " تاريخ سورية "، ص 179.

حصته البابلية) وهو نصف كردى. وهذا يفسر لنا الصداقة التي ربطت سليمان - بالملوك الفينيقيين الذين ساعدوه في بناء هيكله الذائع الصيت في القدس.

ويفسر لنا كذلك الحب الذي كرسته ملكة سبأ العربية للحكيم سليمان. ولو كان يهوديا لاستحالت هذه الصداقة ولاستحال هذا الحب إلى كراهية وبغضاء، لأن اليهود هم أمشاج مختلطة كانوا منبوذين في العالم العربى، ولكن هذا السامى الكردى مرتبط روحيا بمصر إذا لم يكن هذا الارتباط سياسيا، وقد تزوج بامرأة مصرية من طبقة روحية عليا تدين بديانة الإلهة هاتور وتتكتم في ديانتها هذه، وهاتور إلهة سماوية ذات وجه أسود وإن آية الشاعر الملك الرائعة هى " نشيد الإنشاد " [1] الذي هو عبارة عن غزل دينى كان سائدا آنذاك، وهو مصرى قلبا وقالبا ومنهل خالص من مناخل الأدب الصوفى المصرى: (أنا سوداء ولكنى جميلة).

" وإذا كان هذا الملك السامى الكردى قد استطاع ممارسة الدين الذي تكتنفه الخفايا والأسرار - وهو من أعلم أهل زمانه - فإنه كان مدينا بهذا العلم لكاهنة مصرية من كهنة الإلهة هاتور... وهذه الكاهنة تزوجها بدافع الطموح السياسى، وتوج كل هذا بمعاهدة مصرية - أشورية، ففلسطين التي كانت حتى ذلك العهد محمية مصرية، أصبحت في الواقع أشورية، وقد وافق فرعون على تعيين نائب للملك الأشورى شريطة أن يرتبط بمصر عن طريق امرأة مصرية، ونصيبه كنصيب أسلافه.

وعن طريق المرأة نقلت مصر الحائزة على التقاليد الإنسانية القديمة امتيازاتها الروحية، فعهدت بها إلى أجانب من النخبة الممتازة. وقضية سليمان نطرحها كمثال.. ولأجل أن نحسن فهم ماهية هذه المنقولات علينا أن نناظر بين الملك سليمان (المعبرن) بصورة اعتباطية وبين شخصية أخرى هى شخصية الحبر الأعظم (يويا) [2] (المعبرن) هو أيضا - بصورة كاذبة، فسموه يوسف الذي

(1) نشيد الإنشاد لسليمان هو أحد أسفار كتاب العهد القديم، والتقليد اليهودى يشبه علاقة الشعب المختار مع إلهه بعلاقات الزوجة بزوجها، وأن دخول هذا السفر في الأسفار المقدسة إنما هو تجاوب مع هذه الصفات.

(2) " يويا " هو سليمان الأول، وارث الحكمة والعلوم السحرية المصرية، كان أجنبيا وقد ظهر قبل أن يظهر اليهود على مسرح الأحداث.

باعه إخوته " [1].

وهنا تستوقفنا نقطة أساسية لابد من إثارتها وشرحها، وهى: هل كانت هناك في زمن داود وسليمان دولة إسرائيلية بمعنى يهودية حقا!، وهذا يسوقنا إلى أن نسأل: ما هى اللغة والثقافة التي كانت سائدة في فلسطين في عصر داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد؟.. هل كانت لغة داود وسليمان عبرية بمعنى يهودية آنذاك؟

إن هذه المسألة محفوفة بالغموض الكثيف لعدم توافر أدلة محسوسة توضح لنا حقيقة الأمر، إذ لم يعثر حتى الآن على وثائق من هذا العصر على ما وصل إليه علمنا. لذلك فإن معلوماتنا عنه تبقى مصدرها التوراة فقط إلا أن القرائن كلها تدل بوضوح تام على أن هذه الدويلة التي تشكلت في زمن داود وسليمان لم تكن قد توفرت فيها المقومات القومية والثقافية، إذ لم تكن لها لغة أو ثقافة أو حضارة خاصة بها، بل كانت قائمة كليا على تراث كنعانى بحت كما تؤيد لنا ذلك الحقائق التاريخية الآتية:

**أولا:** أن الموسويين اقتبسوا بعد دخولهم فلسطين في عهد موسى، اللغة الكنعانية لغة أهل البلاد، وأخذوا بالثقافة الكنعانية وحضارتها ومن ضمن ذلك تقاليدها وديانتها، مما يدل على أن الثقافة الكنعانية كانت هى السائدة وأن الموسويين في عهد القضاة والملوك كانوا فئة أقلية في البلاد.

**ثانيا:** أن اللهجة العبرية المقتبسة من الأرامية التي كتبت فيها توراة اليهود في الأسر لم تظهر إلا في وقت متأخر ولم يكن لها وجود في عهد داود وسليمان.

**ثالثا:** أن الديانة اليهودية المقتبسة من الشرائع الكنعانية والبابلية والمصرية لم تكتسب الكيان الواقعى إلا بعد تدوين التوراة في وقت متأخر، وبذلك يكون تدوين التوراة في الأسر في بابل في القرن السادس قبل الميلاد هو الذي يمثل بداية الديانة اليهودية، لأن اللغة العبرية المقتبسة من الأرامية والتى كتبت بها التوراة لم تكن قد تكونت إلا قبيل تدوين التوراة.

**رابعا:** لقد كانت في فلسطين عدا الكنعانية لغات وثقافات أصيلة ازدهرت قبل دخول الموسويين إلى فلسطين مثل لغة الأدوميين ولغات الموابيين والعمونيين والأراميين فضلا عن لهجات الفينيقيين. وكان لكل من هذه الأقوام ملوك

(1) " أسطورة الشعب المختار "، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، ص 11 - 19.

وحكومات تتمتع بمقومات الكيان الحضارى المستقل. أما الموسويون فكانوا متأخرين وهم غرباء طارئون على فلسطين لا يملكون المقومات الأساسية لكيان حضارى مستقل خاص بهم. إذن فلا مفر والحالة هذه من قبول النظرية القائلة بأن اللغة الكنعانية كانت اللغة السائدة في البلاد في ذلك العصر، أما المراسلات مع خارج فلسطين فإذا رجعنا إلى العصور السابقة لعصر الموسويين نجد أن الملوك الكنعانيين كانوا يراسلون مصر باللغة البابلية وبالكتابة المسمارية كما هو ثابت من رسائل ملوك كنعان إلى فراعنة مر في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد المكتشفة في تل العمارنة في مصر مما يدل على أن هذه اللغة كانت اللغة المتداولة في بلاد الشرق الأدنى في ذلك الزمن.

ولعل داود وسليمان قد سارا على هذا المنزال باستعمال اللغة البابلية في المراسلات وذلك قبل انتشار اللغة الأرامية في الشرق الأدنى والأوسط. ولكن لغة سليمان وداود في داخل البلاد كانت اللغة الكنعانية التي اقتبسها الموسويون بعد دخولهم فلسطين، لأن اللهجة العبرية التي دونت بها التوراة في وقت لاحق لم تكن قد تكونت بعد في زمن داود وسليمان.

ومعنى ذلك أن كتاب " العهد القديم " لم يكن قد ظهر إلى عالم الوجود في ذلك الزمن، أما المزامير التي ترجع إلى عهد داود وأمثال سليمان فهى من أصل كنعانى وكانت تتلى في ذلك العهد باللغة الكنعانية وعلى الطريقة الدينية الكنعانية (1).

ثم ترجمها الكهنة اليهود إلى العبرانية وعدت من الأسفار المقدسة في التوراة. ففى كل ذلك دليل واضح لا يرقى إليه الشك في أن فلسطين بقيت كنعانية في ثقافتها وحضارتها ولغتها في زمن داود في القرن العاشر قبل الميلاد وأن دويلة داود وسليمان لم تكن إلا دويلة قائمة على تراث كنعانى بحت تمثل أقلية صغيرة بين دويلات عريقة في حضارتها السامية العربية تحيط بها من جميع أطرافها.

وقد يسألنى سائل: أين مدونات الكنعانيين وآثارهم إذا كانت لهم حضارة ذات تراع عريق؟ إذ لم يصلنا شئ مهم من كتاباتهم في حين أنه وصلتنا أطنان من الألواح الطينية الأثرية من سور وبابل وآشور تحمل شرحا مفصلا للغاتهم وحضاراتهم وثقافاتهم، كما أن هناك أكداسا من لفائف البردى الأثرية وصلتنا من

(1) حتى، " تاريخ سورية "، الطبعة الإنجليزية، ص 205 - 206.

مصر زودتنا بمعلومات مفصلة عن نمط حياة المصريين السياسية والاجتماعية والدينية.

وهذا سؤال وجيه قد يرد على ذهن القارئ نترك لعلماء الآثار الإجابة عليه، وفيما يلى بعض شروحهم لتلك الأسباب كما وردت على لسان كيللر " في حوالى بداية الألف الأخيرة (الألف الأولى) قبل الميلاد (وهذا يصادف عهد داود وسليمان على وجه التقريب) هجر الكنعانيون الكتابة المسمارية ذات الزوايا كما هجروا استعمال الألواح الطينية السمجة ليحلوا محلها أسلوبا أقل تعقيدا في الكتابة، فكان عليهم حتى ذلك الزمن اتباع طريقة خدش النص في الطين الطرى بقلم خاص ثم شيه أو تجفيفه في الشمس وهى عملية بطيئة تستغرق بعض الوقت حتى تأخذ الحروف الضخمة طريقها للإعداد.

لذلك أخذوا يميلون أكثر فأكثر إلى استعمال نمط جديد من الكتابة على هيأة خطوط متموجة، وهذا النمط هو الحروف الأبجدية الهجائية الألفباء (الألفابيت) التي استعملها عمال المناجم الساميون في سيناء، إن القلم والطين لم يعودا ملائمين لهذه الحروف الدائرية الملسة. وهكذا صار الكنعانيون يبحثون عن أدوات كتابية جديدة وجدوها في الألواح الطينية المشوية وفى الدواة (المحبرة) وفى الحبر. ويسمى الآثاريون هذه الألواح الصغيرة التي تجرى عليها الكتابة بالحبر سلسلة " أوستراسا " (Ostraca) ثم حل محل هذه الألواح في حالات خاصة استعمال رقوق البردى وهى أرق مادة للكتابة استخدمها العالم القديم.

ويدل التقرير المصرى " وين - أمون " على كثرة الطلبات على هذه المادة في الصادرات المصرية، فقد تسلم أمير " بيبلوس " (جبيل) خمسمائة لفة من هذه الرقوق وهى تمتد طولا إلى أكثر من ميل من ورق الكتابة. ولما كان مناخ فلسطين رطبا لكثرة سقوط الأمطار في الشتاء فما أسرع ما يمسح الحبر من سطح الألواح الطينية الصلبة، أما ورق البردى فهو أسرع تعرضا للتلف. ومما يبعث إلى الأسى في نفوس الآثاريين والعلماء والمؤرخين جميعا وهم متعطشون إلى هذه المعلومات أن يكون مصير جميع الوثائق والمدونات الكنعانية الفقدان الكلى لهذا السبب، وإذا أمكن الآثاريون أن يعثروا في مصر على كميات كبيرة من هذا اللقى الأثرية على حالتها الطبيعية فذلك ناجم عن وقوع هذه المواد في

جوار الصحراء التي تتسم عادة بالطقس الجاف " [1].

وفى مقارنته بين الكتابات المصرية القديمة وبين المدونات الكنعانية القديمة، يؤكد الأستاذ كريمر خبير الآثار السومرية " أن الكتابات الموجودة على الأهرام تعتبر من الدلائل الثابتة على أنه كان للمصريين في جميع الاحتمالات، أدبا مدونا ومتطورا جدا في الألف الثالثة قبل الميلاد، ولكن لسوء الحظ أن معظم التآليف المصرية القديمة كانت مدونة على البردى وهى مادة سريعة العطب، وكذلك الأمر بالنسبة لآداب الكنعانيين القدامى والتى لم تكن معروفة حتى الأيام الأخيرة، ولكن الألواح التي اكتشفها الفرنسيون في شمال سورية (رأس الشمرة) أظهرت للوجود نماذج مدونة من آداب الكنعانيين ومع أن عدد هذه الألواح التي اكتشفها الفرنسيون في شمال سورية (رأس الشمرة) أظهرت للوجود نماذج مدونة من آداب الكنعانيين، ومع أن عدد هذه الألواح يعتبر قليلا نسبيا إلا أنها تنهض دليلا على أن الكنعانيين كان لهم في زمن من الأزمان أدب متطور جدا يعود تاريخه إلى ما يقرب من 1400 سنة قبل الميلاد، أى أن هذه الآداب قد دونت بعدما يقرب من خمسمائة سنة من تدوين الألواح السومرية " [2].

وقد سبق أن أشرنا إلى الاكتشاف الذي أذاعته محطة راديو لندن في شباط 1971 وإلى مراسلتى مع العلامة " مندنهل " المكتشف للمخطوطات القديمة، ومن الأسئلة التي وجهتها إلى هذا المستشرق: هل تعتبر دولة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد عبرانية بمعنى يهودية قبل أن تكون اللهجة العبرية التي كتبت بها التوراة قد تكونت؟، وهل كانت هناك مقومات حضارية في عصر داود وسليمان غير الكنعانية؟ فأجابنى مؤكدا أن الكنعانية كانت السائدة في ذلك العصر وأضاف قوله: منذ عدة سنوات وأنا متمسك بالرأى القائل أن (إمبراطورية) داود وسليمان لم تكن إلا دولة وثنية على نمط الدولة الوثنية في الشرق الأدنى، وقد انتهت بالفوضى السياسية والدمار، لأنها كانت كسائر الدول الوثنية القديمة أكثر اهتماما بالقوة والمجد من التصرف بشكل يستجيب لرفاهية المواطنين أو الدول المجاورة، لقد كان هذا نبذا تاما لرسالة موسى النبوية فقاسوا ما ترتب على ذلك من عواقب " [3].

---

(1) كيللر، " التوراة كتاريخ "، ص 191 - 192.
(2) كريمر، " الأساطير السومرية "، الترجمة العربية، ص 42 - 43.
(3) راجع ما تقدم في الفصل الرابع " ملاحظات ختامية "..

وتؤكد التوراة أن مملكة سليمان كانت وقتية آلت إلى الزوال، فذكرت أن سليمان نقض العهد مع الإله يهوه وأهمل وصاياه إذ ذهب وراء عبادة الأصنام وبناء مرتفعات لها، فغضب الرب عليه: " وقال لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التي أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقا.. " (1).

## 12 ـ عهد الانقسام:

تحدثنا التوراة عن الخلافات التي ظهرت بين الموسويين بعد موت سليمان سنة 931ق.م، تمخض عنها قيام دولتين هزيلتين، الأولى في الشمال باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (سبسطية) والأخرى في الجنوب باسم: يهوذا عاصمتها أورشليم، وتولى الحكم في الأولى يربعام بن نباط، كما تولى الحكم في يهوذا رحبعان ابن سليمان (2). وكانت الحرب سجالا بين المملكتين منذ البداية واستمرت طيلة وجودهما مما أضعفهما كلتيهما، هذا عدا الغزوات التي كانت المملكتان معرضتين لها من الخارج، فكان أول من غزا مملكة يهوذا شيشنق الأول ملك مصر (926 ق.م) " وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان " (3).

وفى زمن يهوران ملك يهوذا الرابع (848 - 841 ق.م) انفصل بنو أدوم عن مملكة يهوذا وملكوا على أنفسهم ملكا (4)، وفى زمنه أيضا صعد الفلسطينيون والعرب الذين بجانب الكوشيين إلى يهوذا وافتتحوها فاستولوا على كل الأموال الموجودة في بيت الملك وسبوا أبناءه ونساءه أيضا ولم يبق إلا أصغر بنيه (5).

وفى زمن يوآش غزا الجيش الأرامى أورشليم وأهلك كل الرؤساء وأخذ جميع الخزائن وقدمها لحزائيل ملك الأراميين (6). وفى عهد أمصيا ملك يهوذا (796 - 767 ق.م) هجم يهوآش ملك إسرائيل على أورشليم فهدم سورها وأخذ

(1) (1 مل، 11: 1 - 13).
(2) (1 مل، 11: 40، 12: 2).
(3) (1 مل، 14: 25 - 26)؛ (2 أخ، 12: 3 - 4 و 9).
(4) (2 أخ، 21: 8 - 9).
(5) (2 أ خ، 21: 16 - 17).
(6) (2 أخ، 24: 3)؛ (2 مل، 12: 17 - 18).

كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفى خزائن بيت الملك (1).

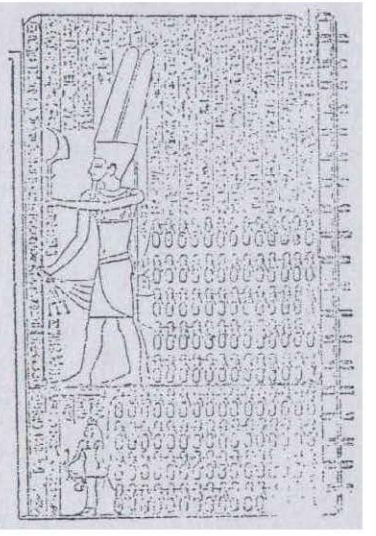

**التصوير رقم (83)**

**مسلة النصر للفرعون الليبى شيشونق الأول مؤسس السلالة الثانية والعشرين**

عثرت عليها بعثة نابليون سنة 1799 في معبد الكرنك يشاهد فيها الإله " آمون " شاهرا بيده اليسرى حربة وماسكا بيده اليمنى حبلا تتجمع عنده حبال ربط فيها 156 أسيرا من أسرى بلاد يهوذا يمثل كل منهم بلدا أو مدينة أو قرية (عن كيللر " التوراة كتاريخ "، ص224).

وفى عهد ازدهار مملكة دمشق الأرامية أصبحت كلتا المملكتين، إسرائيل ويهوذا، تحت سيطرتها، فأخذ الملك ابن هداد (بنهدد) ملك دمشق (789 - 843 ق.م) الجزية من يهوذا وضم منطقة جلعاد في شرقى الأردن إلى المملكة الأرامية، كما أنه فرض الحماية الأرامية والجزية على إسرائيل في عهد ملكها آخاب بن عومرى (874 - 853 ق.م) وكان الأراميون يستغلون الخلاف بين إسرائيل ويهوذا لإخضاعما كليهما إلى نفوذهم، ثم تحركت الإمبراطوية الأشورية المتعطشة للفتح، فاصطدمت أول ما اصطدمت بالأراميين، وبدأ الصراع بينهما على السيطرة، فاستغل الأشوريون الصراع القائم بين الأراميين وبين إسرائيل ويهوذا للانقضاض عليهم جميعا فأخضعوهم كلهم أخيرا الواحد بعد الآخر.

(1) (2 مل، 14: 11 - 14)؛ (2 أخ، 25: 21 - 24).

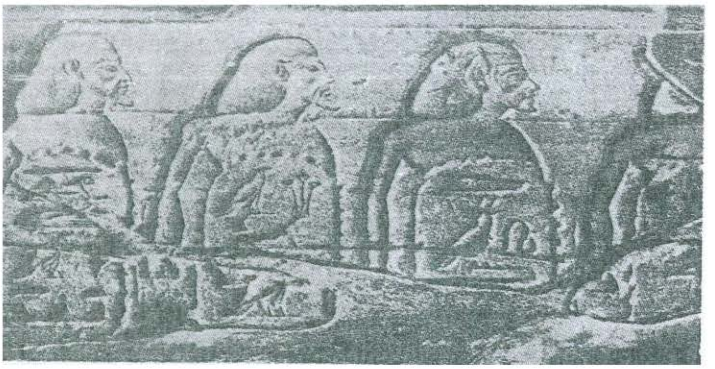

التصوير رقم (84)

أسرى من يهوذا أخذهم شيشونق الأول في حملته على مملكة يهوذا سن 926 ق.م، وجدت بين النقوش المصرية في معبد الكرنك أيضا (كتاب " قصة التوراة "، ص 560)

13 ـ **الغزو الأشورى وإزالة إسرائيل من الوجود:**

لقد كان لقيام الإمبراطورية الأشورية التي دامت بين سنة 911 و 626 ق.م أثرها في تغيير وجه الشرق، فقد حكم خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكا بلغت الإمبراطورية في عهد بعضهم أوج عظمتها واتساعها بحيث ضمت جميع أراضى الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر. ولقد لعبت دورا رئيسيا في القضاء على مملكة إسرائيل نهائيا وسبى سكانها إلى أماكن بعيدة وإحلال سكانا من غير اليهود محلهم من مختلف أنحاء الإمبراطورية ثم تحطيم مملكة يهوذا.

التصوير رقم (85)

الحقول الأربعة الأولى من مسلة الملك شلمنصر الثالث (859 - 824 ق.م)

فقد تمكن شلمنصر الثالث (859 - 824 ق.م) من إخضاع الأراميين والفينيقيين وإسرائيل، وفى مسلة شلمنصر الثالث المشهورة التي عثر عليها بين أنقاض كالح (نمرود) تشاهد عدة صور لحملات شلمنصر على البلاد التي فتحها مع كتابات تحت الصور تشرح ما يمثله كل منها. وتتكون هذه المسلة من الحجر الأسود عليها خمسة حقول متسلسلة كل منها مكرر أربع مرات في أربعة أطراف المسلة. ففى الأول من الجهة العليا يشاهد شلمنصر يتلقى الجزية من " شوعة " ملك " جلزام "، وفى الثانى يتلقى الجزية من " يهو " ملك إسرائيل في أرض عومرى. ويرى الملكان ساجدين يقبلان الأرض عند أقدام شلمنصر. وفى الحقول الثلاثة التالية ترى الغنائم والجزية من بلاد " موسرى " و " سوخو " و " باتن " على التوالى. وبذلك يبلغ مجموع عدد الصور في المسلة عشرين صورة (انظر التصوير رقم 85).

ومن الحملات التي شنها ملوك الإمبراطورية الأشورية حملة " تجلات بلاسر الثالث " على مملكة أرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة 732 ق.م، وسبى أهلها وقتل ملكها " رصين " ثم توجه إلى إسرائيل فاستولى في زمن " فقح " ملك إسرائيل (739 - 731 ق.م) على كل أرضين إسرائيل وسبى اليهود إلى أشور وأحل محلهم سكانا من أقاليم أخرى، تاركها لخلف فقح الملك هوشع مدينة السامرة [1].

وقد قام تجلات بلاسر بهذه الجملة استجابة إلى طلب آحاز بن يوثام ملك يهوذا (735 - 715 ق.م) من تجلات بلاسر إنقاذه من ضغط الملك رصين ملك دمشق والملك فقح ملك إسرائيل وقدم إلى ملك آشور كميات كبيرة من الفضة والذهب " الموجودة في بيت الرب وفى خزائن بيت الملك " [2]. وقد عثر على مسلة أشورية نقش عليها شرح كامل لحملة تجلات بلاسر هذه على بلاد أرام وعلى إسرائيل.

(1) جاء في كتابات تجلات بلاسر الثالث ما هذا نصه: قمت بضم جميع مدن بيت عومرى في حملاتى السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة. أخذت نفتالى بأسرها وضممتها إلى أشور وعهدت برجالى حكاما عليها، وجميع سكان أرض بيت عومرى وممتلكاتهم حملت إلى أشور، وقد ورد مثل ذلك في التوراة (2 مل، 15: 29)؛ (1 أ خ، 5: 23). انظر أيضا:

Keller, "The Bible as History", P. 241.

(2) (2 مل، 16: 7 - 9).

ثم جرد شلمنصر الخامس، خلف تجلات بلاسر حملة تأديبية على إسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات، وقبل أن يظفر بالنصر النهائى وافته المنية في الشهر العاشر من عام 722 ق.م، ولكن القائد الأشورى أتم مهمته باحتلال السامرة في النهاية على عهد سرجون الثانى خلف شلمنصر وبذلك تم استسلام السامرة والقضاء على مملكة إسرائيل نهائيا [1]. وتبعا للخطة التي سار عليها تجلات بلاسر الثالث أجلى سرجون الثانى 27280 شخصا من اليهود إلى ناحية حران وإلى ضفة الخابور وميديا وأحل محلهم الأراميين من إقليم حماة، ثم لحق بهم العرب هناك في عام 715 ق.م وكذا بعض الأهلين من كوثا وبابل سنة 709 ق.م [2].

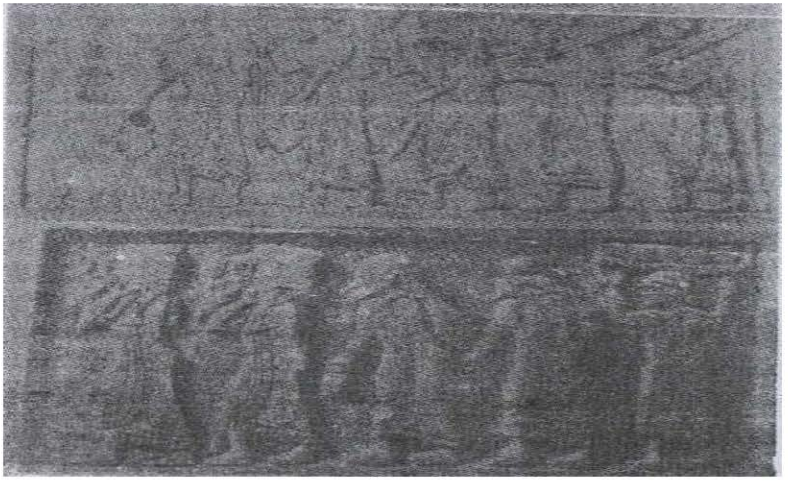

**التصوير رقم (86)**

**حقلان من حقول مسلة شلمنصر الثالث يشاهد فيها الهدايا التي بعث بها " ياهو " ملك إسرائيل إلى شلمنصر الثالث**

وقد عثر الخبير الآثارى بوتا سنة 1843 بين أطلال مدينة " سمال " (زنجرلى) عاصمة الأراميين في شمال غربى سورية على مسلة سرجون الثانى نقشت عليها باللغة الأشورية وبالخط المسمارى تفاصيل الحملة الأشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء عليها وحمل اليهود إلى الأسر.

وبذا كانت نهاية مملكة إسرائيل وبقيت مملكة يهوذا الصغيرة تنتظر دورها

(1) (2 مل، 18: 9، 17: 6).

(2) دى لابورت، " بلاد ما بين النهرين "، الترجمة العربية، ص309.

وهى تتأرجح في مهب الرياح بين رحمة حكومة مصر من الغرب ودولة أشور من الشرق، فإذا انحازت للأولى غضبت عليها الثانية، وإذا انضمت إلى الثانية أغاظت الأولى. ولما انحاز حزقيا ملك يهوذا إلى مصر غضب سنحاريب الذي خلف سرجون فصمم على القيام بحملة قوية على مملكة يهوذا لإخضاعها أو تدميرها والقضاء عليها كما فعل أسلافه بإسرائيل.

**التصوير رقم (87)**

**أسرى أمام الملك سرجون الثانى (722 – 705) يجذبهم إليه بحبل نفذ من خلال ألسنتهم وبقور أعينهم برمحه**

فهب حزقيا وأرسل وفدا إلى مصر مستنجدا بملكها فوعده المصريون بمده بالعون، فانتقده أشعيا على اعتماد على ملك مصر بدلا من اعتماده على الرب بقوله: " ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات لأنها كثرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جدا ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب " [1].

ولدينا مصدران عن أخبار حملة سنحاريب على مملكة يهوذا: الأولى كتابات سنحاريب نفسه وقد نقشت على جدران قصره في نينوى إلى جانب صورته وهو جالس على عرشه في مقر عملياته الحربية في لخيش وقد ظهر وفد من يهوذا يقدمون الجزية وفروض الطاعة. ويظهر مما ورد في هذه المدونات أن سنحاريب اتجه غربا حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط فاستولى على

(1) (أش، 30: 1 - 7، 31: 1).

صيدون (صيدا) بعد فرار ملكها " لولى " دون أن يتحرش ببلدة صور لموقعها المنيع على الجزيرة، وأشدود وكذلك من دول الشرق من موآب وعمون وأدوم. وقد بعثت مصر بجيش من المصريين والأثيوبيين فاستولوا أولا على " أشقلون " (عسقلان) ثم اتجهوا شمالا للاتصال بقوت حزقيا ملك يهوذا إلا أن سنحاريب قابلهم وانتصر عليهم، ثم توجه إلى عقرون فهدمها وأخذ يحتل مدن يهوذا الواحدة بعد الأخرى وقد اتخذ مقره في لخيش ومنها بعث بجيش أقام الحصار حول أورشليم العاصمة [1].

**التصوير رقم (88)**

**الملك سنحاريب (705 – 681 ق.م) جالس على عرشه في " لخيش " التي اتخذها مقرا له في حملته على يهوذا سنة 701 ق.م**

وفيما يلى نص كتابة سنحاريب التي يصف فيها انتصاراته على يهوذا فيقول:

" أما حزقيا اليهودى فلم يرضخ لسلطتى فحاصرت 46 مدينة من مدنه المحصنة عدا القرى المجاورة التي لا يحصى عددها واستوليت عليها كلها باستخدام أنواع الآلات الحربية والمنجنيقات مما ساعدنا على الاقتراب من الأسوار واختراقها. وقد أخذنا منهم (اليهود) 200150 نسمة رجالا ونساء، أطفالا وشيوخا مع حيواناتهم من الخيول والبغال والحمير والجمال، كبيرة وصغيرة، لا تحصى،

(1) R.W. Rogers, "Cuneiform parallels to the old Test", N.Y. 1912, PP. 340 - 348.

وهذه كلها غنائم استولينا عليها، هو شخصه (حزقيا) جعلته حبيسا في أورشليم في قصره كالطير في القفص وأحطته بأكوام من الأتربة للتضييق على كل من يحاول الخروج من باب المدينة. سلمت مدنه التي استوليت عليها إلى " ميتينى " ملك أشدود و " بادى " ملك عقرون، و " سيلبيل " ملك غزة وهكذا قلصت حدود بلاده وفرضت زيادة في الجزية التي عليه أن يدفعها سنويا [1].

أما المصدر الثانى: فهو رواية التوراة وقد جاءت هذه الرواية مشوشة غير واضحة فمرة تقول: " صعد سنحاريب ملك أشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها وأرسل ملك يهوذا إلى ملك أشور إلى لخيش يقول قد أخطأت، ارجع عنى ومهما جعلت على حملته، فوضع ملك أشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفى خزائن بيت الملك " [2]، ثم تعود التوراة في رواية ثانية تقول: أن ملك أشور " أرسل من لخيش إلى حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا وأتوا إلى أورشليم.. وأن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا، ولما بكروا صباحا إذا هم جثث ميتة فانصرف سنحاريب ملك أشور وذهب راجعا وأقام في نينوى " [3].

نستخلص من المصدرين الأمور التي تتفق فيها الروايتان:

**أولا:** أن حزقيا طلب العون من مصر فعلا استنادا إلى انتقاد أشعيا للملك حزقيا على طلبه العون من مصر.

**ثانيا:** استيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا المحصنة.

**ثالثا:** أن سنحاريب اتخذ من لخيش مركزا لعملياته الحربية في فلسطين.

**رابعا:** أن الحصار على أورشليم وقع فعلا ثم فك الحصار.

**خامسا:** تسلم سنحاريب الجزية التي فرضها على حزقيا.

**أما الخلاف فينحصر في الأمور التالية:**

---

(1) J.Pritchard, "Archaeology and the Old Testament", Princeton, 1958, p. 157.

(2) (2 مل، 18: 13 - 15).

(3) (2 مل، 18: 17، 19: 25 - 26).

**أولا:** أن التوراة في الوقت الذي تعترف ضمنا بطلب العون من مصر إلا أنها لم تشر إلى المعركة التي تذكرها كتابات سنحاريب بين جيشى أشور ومصر وتغلب الأول على الثانى.

**ثانيا:** أن التوراة تعترف باستيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا إلا أنها سكتت عن الغنائم والأسرى الذين سباهم سنحاريب، وقد سكتت التوراة أيضا عن تسليم المدن التي استولى عليها سنحاريب إلى ملوك أشدود وعقرون وغزة.

وقد حددت التوراة تاريخ حملة سنحاريب على يهوذا في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا ولما كان حزقيا قد ارتقى العرش في سنة 715 ق.م، فيقع زمن حملته في سنة 701 ق.م وهذا يتفق مع التاريخ الذي توصل إليه المحققون من المصادر الأخرى، ومع أن مدينة أورشليم لم تسقط إلا أن الجيش الأشورى ترك البلاد خرابا ولم يستطع ملك يهوذا الاحتفاظ بعرشه إلا بعد دفع الجزية واعترافه بسيادة الأشوريين وظل الأمر كذلك حتى انهيار الدولة الأشورية [1].

**التصوير رقم (89)**

**أسرى يهود موسيقيون أخذهم الأشوريون في حملتهم على يهوذا**

وأثبت دليل على أن تسمية إسرائيل وبنى إسرائيل للدلالة على أتباع موسى

(1) انظر بحث الأشوريين في الفصل الأول.

واليهود هى من ابتداع كتبة التوراة في وقت متأخر وأن دور موسى واليهود لا يمت بأية صلة إلى إسرائيل، وأن مصطلح بنى إسرائيل لم يرد في الكتابات الأشورية، مع أنه كانت هناك حروب متواصلة بين الأشوريين وبين ما سمى في التوراة بـ " مملكة إسرائيل " وقد أفاض الملوك الأشوريون في وصف هذه الحروب من غير أن ترد أية إشارة إلى مملكة إسرائيل. فقد سمى الأشوريون مملكة إسرائيل الوارد ذكرها في التوراة " بيت عومرى " في كتاباتهم، ولو كانت جماعة اليهود تسمى بـ " إسرائيل " في ذلك العصر لذكرها الأشوريون بهذه التسمية. ففي مسلة شلمنصر الثالث (858 - 824 ق.م) ورد اسم " يهوه " الذي أطلقت عليه التوراة عنوان " ملك إسرائيل " مقرونا بـ " بيت عومرى " وكذلك استعمل الملك تجلات بلاسر الثالث اصطلاح " بيت عومرى " في وصفه لحملته على فلسطين للدلالة على " إسرائيل التوراة "، فقال: " قمت بضم جميع مدن بيت عومرى.. وجميع سكان أرض بيت عومرى وممتلكاتهم... إلخ " وهذا ما يدل على أن التوراة قد انفردت في تسمية مملكة إسرائيل للدلالة على اليهود بعد تدوينها في وقت لاحق يلى العهد الأشورى، وذلك بغية ربط صلة اليهود بإسرائيل وبجده إبراهيم الخليل للأسباب التي شرحناها فيما تقدم. هذا مع العلم أن كلمة " إسرائيل " وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود، للدلالة على منطقة كنعانية بهذا الاسم، لذلك من الأرجح أن نسبة شلمنصر الثالث آخاب إلى إسرائيل هى نسبة إلى منطقة إسرائيل الكنعانية في فلسطين وليست نسبة إلى شخص إسرائيل (يعقوب).

وهنا تستوقفنا نقطة مهمة مقرونة بعلامة استفهام: هل كانت هناك مملكة تسمى إسرائيل حقا؟ لقد أفاض ملوك آشور في وصف حملاتهم على أقوام الشرق الأدنى وذكروا أسماء ملوك الدول التي أخضعوها ولقبوا رؤساء هذه الدول بالملوك إلا إسرائيل التوراة لم يطلق عليها اسم إسرائيل ولا على رئيسها تسمية ملك إذ سميت باسم " بيت عومرى " وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن ما سمته التوراة بمملكة إسرائيل لم يكن أكثر من قبيلة لم ترتفع إلى مستوى المملكة أو الدولة، واستعمال هذا الاصطلاح للدلالة على القبيلة كان ولا يزال شائعا عند العرب منذ القديم، هذا مع العلم أن التوراة هى المصدر الوحيد الذي يدعى بوجود مملكة تسمى إسرائيل كما أن معلوماتنا عن مملكة يهوذا والعهد الذي سمى بعد الملوك (شأول وداود وسليمان) مستقاة من التوراة وحدها. والتوراة كما هو معلوم هى من وضع الكتبة اليهود في وقت متأخر وهى مشحونة بالأساطير والمبالغات

التي لا مجال لتصديقها، والادعاءات الخيالية التي لا يمكن أن يقرها العقل والمنطق. وعلى هذا لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر موثوق في تدوين الأحداث التاريخية القديمة ما لم تزكى من مصدر قديم أصيل، فكلما تعمقنا في دراسة التوراة وتتبعنا الظروف التي وافقت وضعها كلما ازداد اعتقادنا بأنه يجب على المؤرخ أن لا يتخذ من التوراة مصدرا نعول عليه في تدوين تاريخ الأحداث القديمة.

**14 ـ الأسباط العشرة المفقودة والمسيحيون النساطرة في كردستان:**

كانت سياسة الأشوريين أن يبعدوا السبايا إلى عدة أماكن نائية منعزلة لكى لا يتيسر لهم التجمع في مكان واحد والتكتل على أمل العودة إلى مناطقهم التي أبعدوا عنها، وهكذا فقد أبعد الأشوريون أسراهم اليهود من مملكتى إسرائيل ويهوذا إلى المناطق الجبلية المنعزلة في كردستان العراق وتركيا وإيران ضمن حدود الإمبراطورية الأشورية وأحلوا محلهم أقواما من أنحاء الإمبراطورية حتى خفيت أخبارهم عن اليهود في فلسطين وفى العراق فاعتبروا بحكم عن اليهود في فلسطين وفى المناطق العراقية الأخرى غير المناطق الجبلية الكردية فقلدوا الأكراد في نمط معيشتهم حيث صاروا يمارسون الأعمال الحقلية الزراعية وتربية المواشى متمتعين بحماية رؤساء القبائل الكردية ويؤدون لها الجزية.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن هؤلاء اليهود المسبيين لا يزالون رغم مرور حوالى 2800 سنة على نفيهم إلى كردستان يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأصلية، اللهجة الأرامية الغربية القديمة التي كانوا يتكلمون بها قبل سبيهم إلى المناطق الكردية، ويلاحظ أن الصهاينة كانوا يحرصون كل الحرص على تهجير هؤلاء اليهود إلى إسرائيل من دون بقية يهود العراق.

التصوير رقم (90)

أحد الرعاة اليهود في كردستان – من تصوير المؤلف

وذلك لأنهم أصحاء الجسم يمتهنون الفلاحة وتربية المواشى فهم يصلحون أكثر من غيرهم من اليهود كأياد عاملة في الحقل، وفضلا عن ذلك فهم لا يزالون متمسكين بديانتهم الأصلية ولا يخشى منهم مشاركة العرب في شعورهم نحو القضية العربية لأن لغتهم الثانية بعد الأرامية هى الكردية. وقد أفلح الصهاينة في تجهيز كل اليهود الأكراد من العراق إلى إسرائيل بالاتفاق مع الحكومة العراقية القائمة. ويؤيد الباحثون نقلا عن هؤلاء اليهود الأكراد أنفسهم بأنهم أحق اليهود الذين سباهم الأشوريون ونقلوهم إلى منطقة كردستان [1]. وقال ذلك بنيامين التطيلى الذي زار هذه المنطقة في القرن الثانى عشر الميلادى، في رحلته عن العمادية [2]: " يقيم بها نحو خمسة وعشرون ألف يهودى وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان [3]، عند تخوم بلاد مادى. ويهودها من

(1) Neusner, "A History of the Jews in Babylonia, the Parthian Period", P. 59 n.t ; Fischel, "The Jews of Kurdistan", P. 196.

(2) العمادية قلعة شعيرة في شمال العراق تبعد نحو 168 كيلو متر عن الموصل، كانت تسمى في العصر الأشورى أمات (Amat) ويروى ياقوت أنها كانت حصنا للأكراد يدعى " آشب " وبعد خرابه عمره عماد الدين زنكى بن آق سنقر وسماه باسمه.

(3) خفتيان حبتون أو هفتون، من جبال كردستان، جاء في معجم البلدان لياقوت: حبتون جبل بنواحى الموصل، وهفتون بليدة صغيرة من نواحى أربل تنزلها القوافل لمن يريد أذربيجان، وخفتيان قلعتان عظيمتان من أعمال أربل، إحداهما على طريقة مراغة يقال لها خفتيان الزرزارى والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر.

بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمنصر ملك أشور ويتفاهمون بلسان الترجوم [1]. وبينهم عدد من كبار العلماء والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم.

يؤدى يهودها الجزية للمسلمين شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية، وقدرها دينار أميرى ذهبا لمن بلغ منهم الخامسة عشر من عمره، وفى كلام بنيامين على نهاوند، وهى بلدة تبعد أربعين ميلا عن همذان يقول: " وأرض نهاوند تبعد مسيرة خمسة أيام عن العمارية تسكنها طائفة لا تؤمن بدين الإسلام، يعتصم أتباعها بالجبال المنيعة ويطيعون " شيخ الحشاشين " [2] ويقيم بين ظهرانيهم نحو أربعة آلاف يهودى يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم، وبينهم العلماء التابعين لنفوذ رأس الجالوت ببغداد [3].

وقد توصل الدكتور غرانت الطبيب والمبشر الأمريكى الذي قضى عدة سنوات في منطقة كردستان وتجول في أنحائها التركية والعراقية والإيرانية إلى أن أكثرية يهود كردستان من أحفاد السبايا الأشوريين وأنهم أخذوا بتعاليم السيد المسيح بعد ظهوره وصاروا يعرفون بالنساطرة نسبة إلى القديس نسطور أو التيارية بالنسبة لتسميتهم القبائلية [4]، والدكتور غرانت هذا حل بين النساطرة

(1) يقصد اللغة الأرامية الشرقية التي مازال يهود كردستان يتكلمون بها فيما بينهم حتى اليوم.

(2) هم الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح، استفحل أمرهم في القرنين السادس والسابع للهجرة، حتى استأصل شأفتهم هولاكو فهاجر فريق منهم إلى الهند.

(3) " رحلة بنيامين التطيلى "، ترجمة عزرا حداد، ص 153 - 154.

(4) إن المذهب النسطوري فرع من المسيحية ظهر أثر حدوث انشقاق مذهبي واسع في المسيحية في الشرق سنة 431م، ولم يقتصر هذا الانشقاق على النسطورية بل شمل فرعًا آخر وقع سنة 451م هم اليعقوبية المناوئة للنسطورية، هذا عدا طائفتي البروتستانت والكاثوليك في أوروبا، ونظرًا لنفوذ الطائفتين الأخيرتين ورغبة كل منهما في جذب اليعاقبة والنساطرة للانضمام إلى كنيستها فقد نشطت البعثات التبشيرية من أوروبا وأمريكا والبابوية إلى اليعاقبة والنساطرة واستطاعت أن تحول قسمًا من اليعاقبة عن مذهبهم الأصلي إلى المذهب الكاثوليكي فسموا بالسريان الكاثوليك نسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية وبقي اليعاقبة الأصليون يتسمون بالسريان الأرثوذكس بمعنى المستقيمين الرأي.
وأما النساطرة فقد التحقت جماعة منهم في منطقة السهول برئاسة مار إيليا بروما وسموا بالكلدان واعترفت الحكومة العثمانية بهم كملة الكلدان سنة 1845، وفي نفس

على رأس بعثة أوفدها مجلس البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية سنة 1835م، وبحكم مهنته كطبيب كان يسهل عليه التوغل بين المسيحيين والأكراد في تلك المناطق الجبلية الصعبة والمحفوفة بالمخاطر. فاتخذ الدكتور غرانت أورمية مركزا لعمله وأسس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة داخلية واحدة للبنات في أورمية. وقد تعلم الدكتور غرانت لغة المسيحيين النساطرة وهي اللغة الأرامية السريانية وترجم بعض أقسام من الإنجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته.

وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في منطقة كردستان الواقعة في تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بشخصياتهم الدينية والقبائلية وبخاصة

---

الوقت تزعم المار شمعون في منطقة الجبال النساطرة الذين ثبتوا على مذهبهم كزعيم ديني وقبائلي وتبعوه في جميع شؤونهم، وقد حلت بين هؤلاء بعثات التبشير الإنكليزية في مواطنهم على الحدود الإيرانية التركية شرقا وغربًا وأن هذه البعثات حين لم تستطع تحويلهم إلى اعتناق مذهبها فقد استطاعت إقناعهم بعدم لياقة الاسم النسطوري وأن تسميتهم بالأثوريين ترفع من منزلتهم في الأوساط العالمية إذ لابد أن يكونوا أحفاد ذلك الشعب الأشوري العريق في السؤدد والحضارة فيقول جون جوزيف في كتابه " النساطرة ومجاوروهم المسلمون " المطبوع في برنستون سنة 1961: " لقد أطلق على البعثة التبشيرية الإنكليزية التي أرسلت إلى النساطرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1886) اسم (بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى المسيحيين الأثوريين)، ولقد كانت هذه البعثة بالذات هي أول من سمى النساطرة أثوريين.. وأن نظرية كون النساطرة أحفاد الأثوريين القدامى لقي دعاية واسعة بلسان المبشر الإنكليزي ويجرام الذي نشر هذا الاسم وعرف العالم بالمأساة التي حلت بأحفاد شلمناصر.. ويضيف إلى ذلك قوله: ولم يكن هؤلاء النساطرة يدعون أنفسهم بهذا الاسم (أي أثوريين) إلا منذ القرن التاسع عشر، وهذا ما يوضح أن النساطرة الكلدان الذين تحولوا إلى الكلثكة ليسوا أحفاد الكلدان القدامى، وأن اللغة المسماة بالكلدانية والتي تقرأ بها الطقوس الكنسية ليست من اللغة الكلدانية في شيء بل هي اللهجة الأرامية الشرقية أو اللهجة السريانية العراقية، كما أن النساطرة الذين سموا بالأثوريين ليسوا أحفاد الأشوريين القدامى وأن ما يسمى باللغة الأثورية لا تعدو كونها اللهجة السريانية= =الشرقية (أرامية - سريانية) بقلم جورج حبيب، مجلة التراث الشعبي، أيلول 1970، ص 86 - 87).

اتصاله ببطريقهم الأكبر الذي كان مقره في بلدة " جولامرك " الواقعة قرب منبع خابور دجلة، توصل إلى أن النساطرة القاطنين في كردستان هم أحفاد الأسباط العشرة المفقودة الذين سباهم الأشوريون وأبعدوهم إلى مناطق أشور النائية، وهى المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، أى جلح وخابور ونهر جوزان ومدن مادى [1]. وتتوسط هذه المناطق التي تشمل مساكن أكراد العراق وإيران وتركيا مدينة نصيبين، وقد كانوا على رأى الدكتور غرانت يهودا عندما نفاهم الأشوريون إلى هذه المناطق الجبلية النائية، ثم لما ظهر السيد المسيح بعد حوالى سبعة قرون اتخذوا تعاليمه دينا لهم، وذلك نتيجة البعثات المسيحية التي أوفدها الحواريون أتباع السيد المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحى الجديد بينهم، وكان ذلك بعد وفاة المسيح بقليل، مما يدل على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم [2].

وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرون على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هى نفس تقاليد وطقوس وعادات ولغة اليهود القاطنين في تلك المناطق، وهم قلة بينهم لم يتنصروا، حتى أنه كان من الصعب التمييز بين النساطرة وبين اليهود المجاورين لهم في المنطقة.

ويذكر الدكتور غرانت أنه شاهد مخطوطا بالسريانية لدى المار شمعون الرئيس الروحى للنساطرة يرجع إلى ما قبل أكثر من سبعمائة سنة يؤيد كون النساطرة أحفاد الأسباط العشرة. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة مفصلة

---

(1) (2 مل، 17: 6، 18: 11).

(2) تدل المدونات التاريخية المسيحية على أن بعض تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين جاءوا بعد وفاته مباشرة على منطقة الأسباط العشرة للتبشير بتعاليمه بينهم، فقد جاء من هؤلاء التلاميذ المدعو " مارادى " ومعه " مارمارى " فطافا بلاد نصيبين وأشور وكركوك، وبعد وفاة " مارادى " بقى " مارمارى " يطوف بلاد حديان وكركوك ورنوان وكشكر وساليق وميشان والأهواز وتوفى في المدائن سنة 82 للميلاد ودفن في البيعة الكبرى بدور قنى في سرجاد " تاريخ كلدو وأشور "، ج2، ص 2 " أخبار بطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل " لعمرو= =بن متى، ص 1 - 2، " أخبار بطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل، لمارى بن سليمان، ص 3 - 5.

لدعم ما توصل إليه بخصوص أصل المسيحيين النساطرة في كتاب نشره بالإنجليزية تحت عنوان " النساطرة أو الأسباط المفقودة " وطبع هذا الكتاب في نيويورك سنة 1843 [1] ثم ترجم إلى الفرنسية وطبعت الترجمة في باريس سنة 1543 [2].

ويرى الدكتور نيوزنر صاحب كتاب " تاريخ اليهود في بابل " أن الأدلة التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأى القائل بأن النساطرة هم في الأصل من اليهود الذين نفاهم الأشوريون إلى منطقة كردستان ثم تنصروا بعد ظهور السيد المسيح تقيم بحجة قوية مقنعة لتقبل هذه النظرية، ويشرح الأستاذ نيوزنر بصورة مفصلة انتشار حركة التنصر التي اجتاحت المجتمع اليهودى في العراق بعد ظهور السيد المسيح مع بيان أسبابها. فكان من جملة الأسباب التي ذكرها التذمر من تحكم وتشديد الربانيين الذين كانوا يدعون بأنهم يمتلكون الحق والامتياز بتوجيه حياة الطائفة اليهودية حسب تفسيراتهم للتوراة والتلمود.

ومن هذه الأسباب أيضا مضايقات الربانيين بتحريم اختلاط أبناء الطائفة اليهودية بالأغيار المجاورين لهم وقبول أية مساعدة منهم وذلك خوفا من تأثرهم

(1) انظر المراجع التالية:

A.Gran, "The Nestorians or the Lost Tribes, N.Y., 1841; G.Badger, The Nestorians and their Ritual". London, 1852, (2vols.); J.Joseph, "The Nesorians and their Muslem Neighbours", Princeton 1961; J.Joseph, d'Avril, "La Chaldee chretienne - Histoire des Chaldeens unis et des Nestoriens". Paris, 1864.

(2) انظر المراجع التالية حول يهود كردستان:

Isaac Ben Zvi, "Les Juifs Kurdes dans le Judaisme Sephardi", London, Mai 1954; J. Jbenjamin, "Cinq annees en Orient, 1846 - 51", Paris, 1856; W.Schwarz, "Bei den Kurdishen Juden", Judische Rundshau, 12. VII, 1935; W.Schwarz, "Die Juden in Sandor", Judische Rundshau, 2.6., 1935; David d'Bet Hillel, "The Travels of Rabbi David d'Bet Hillel from Jerusalem through Arabia, Koordistan, Part of Persian and India to Madras", Madras, 1832; A.Ben Jacob, "Kurdish Jewish Communities", Jerusalem, 1961, (in Hebrew); W.J. Fischel, "The Jews of Kurdistan a Hundred Years ago", N. Y., 1944.

بالديانات الأخرى غير اليهودية ومنها المسيحية. وكلما كان الوثنيون يشنون حملات الاضطهاد ضد اليهود كان الربانيون يمانونهم بالمسيح المنتظر الذي ينقذهم من آلامهم ومن عبوديتهم فيملكهم على العالم أجمع ولكن الانتظار الطويل دون تحقيق هذه الأمنية ولد روح التذمر في نفوسهم، وفضلا عن ذلك كان الربانيون يفرقون بين بعض الطبقات من أبناء الطائفة اليهودية مما حمل الطائفة المهانة على الميل لتقبل الدعوة المسيحية التي تبشر بالأخوة والمساواة مقابل التفسيرات التلمودية التي وضعها الربانيون والتى تأمر بالعزلة وتدعى بالاستعلاء والتفوق على بقية الناس من غير اليهود. وقد أقلقت حركة التنصر بين اليهود وانسياقهم نحو المسيحية الربانيين بحيث أصبحت تجابههم مشكلة حرجة وعويصة في مجرى حياة اليهودية، ولكن كل المحاولات المبذولة في سبيل إيقاف وتجميد هذه الحركة باءت بالفشل وصارت الجماعة المتنصرة تعرف بـ " المينيم " (Minim) والشخص اليهودى المتحول إلى النصرانية بـ " المين " (Min) حتى صار كل مسيحى من أهل يهودى يعرف بهذا الاسم لتمييزه عن بقية المسيحيين [1].

وتتفق التواريخ المسيحية والكتب الطقسية القديمة على أن أولى الجماعات النصرانية في الشرق تألفت من اليهود المنتصرين، وأن تلميذي السيد المسيح أدي وماري هما اللذان بشرا أولاً بالمسيحية منذ الجيل الأول للمسيح، فكان أول أسقف عين في أربيل عاصمة حدياب من اليهود المنتصرين على يد المار ادي في أربيل، ثم تولى مهمة التبشير بالمسيحية بعد ادى وماري أساقفة من اليهود المتنصرين أيضًا كانت أعمالهم التبشيرية بين اليهود من أبناء طائفتهم وهم مرتبطون معهم بوشائج عائلية ولغوية، كان باستطاعتهم التأثير فيهم وإقناعهم بأفضلية الدين المسيحي على الدين اليهودي، إذ جاء هذا الدين الجديد لإصلاح ما أدخل على دين موسى من التحريف والبدع على يد الربانيين من اليهود، فقد تولى كرسي أسقفية أربيل عشرة أساقفة بين سنة 104 وسنة 312 للميلاد كانوا كلهم من اليهود المتنصرين كما تدل على ذلك أسماؤهم وهم: بقيدا، وشمشون، وإسحاق، وإبراهام، ونوح، وهابيل، وعبيد مشيحا وحيران، وشحلوبا، واحاد بوي، وقد ذكرت الأخبار أن بقيدا الذي عين أول أسقف في حدياب هو من الذين تتلمذوا على المار ادي في أربيل وكان من عائلة يهودية فقيرة وتنصر نحو سنة

(1) Neusner, "The Jews in Babylonia "III, P. 354.

99م، فاضطهده أهله وحبسوه لكنه هرب ولحق بما رآدي وهو يكرز بالإنجيل في جبال حدياب وبقى عنده خمس سنوات، ثم جعله أسقفا وأرسله إلى أربيل سنة 104م، ونصَّر بفيدا أهله وكثيرين من سكان المدينة وتوفي سنة 114 ودفن في منزل أهله (تاريخ كلدو واثور 2:1 - 14)، وقد مارس بفيدا مهما أسقفية أربيل في زمن ملكي الفرث باقور الثاني (77 - 111م) وخوسرو (111 - 121م) وكانت أمارة حدياب آنذاك تحت حكم أسرة يهودية حكمت حدياب بين سنة 36 وسنة 115م.

ونخلص مما تقدم إلى أن التبشير بالمسيحية في الشرق قد تم في القرنين الثاني والثالث للميلاد على شكل واسع بين اليهود في منطقة حدياب على يد أساقفة من اليهود المتنصرين، وكان ذلك بعد انقراض حكم السلالة اليهودية في حدياب بين سنة 36 وسمة 115م.

ونخلص مما تقدم إلى أن التبشير بالمسيحية في الشرق قد تم في القرنين الثاني والثالث للميلاد على شكل واسع بين اليهود في منطقة حدياب على يد أساقفة من اليهود المتنصرين، وكان ذلك بعد انقراض حكم السلالة اليهودية في حدياب على يد الإمبراطور تراجان سنة 115م، إذ لم يكن باستطاعة اليهود أن ينتصروا في عهد حكومة حدياب اليهودية لما كان لهذه الإمارة من نفوذ على رعاياها، وهذا يكشف لنا أن اليهود الذي أسرهم الأشوريون ونقلوهم إلى جبال كردستان وهم الأسباط العشرة الذين اعتبرهم المؤرخون مفقودين واعتبرهم يهود بابل مندمجين بالوثنية كانوا لا يزالون في أمكانهم الجبلية المنعزلة التي استقروا فيها ولكن كمسيحيين لا كيهود، ومن الواضح أن هؤلاء اليهود المسبيين وجدوا في منفاهم في هذه المنطقة الجبلية المنيعة خير مؤيل يحميهم من غارات الفاتحين، فحافظوا على كيانهم واستقلالهم، ولغتهم السريانية ومعها المذهب النسطوري، حيث كانوا في مأمن بعيدين عن ويلات الحروب والغزاة، وعاشوا كيهود سبعة قرون قبل المسيح، وكمسيحيين زهاء 1800 سنة بعد المسيح، هذا في حين أن إخوانهم من السبي البابلي ومن يهود فلسطين قاسوا من اضطهاد الفرس والرومان الشيء الكثير، ويبدو أن المتنصرين من اليهود كانوا في البداية يحفظون السبت والأحد على أساس أنهم كانوا لا يزالون متمسكين ببعض وصايا الناموس وطقوسه، بينما كان المنتصرون من الأمم لا يحفظون إلا الأحد ومع توالي الأيام صار الجميع يحفظون يوم الأحد فقط (قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص 396).

### 15 ـ إمارة حدياب اليهودية:

ومما تجدر الإشارة إليه أن إمارة واسعة تدعى إمارة حدياب وبالعربية (حزة) ازدهرت في القرن الأول بعد الميلاد في نفس منطقة كردستان التي نقل إليه يهود مملكة إسرائيل المسبيين (الأسباط العشرة)، وهى من ضمن أراضى أشور القديمة تقع في شرقى نهر دجلة في منطقة كردستان وتمتد بين نهر دجلة وأذربيجان ثم توسعت لتشمل بلدة نصيبين غربا. وكان ملك هذه الإمارة المدعو (إيزاط الأول) يهوديا كما كانت الملكة الأم المدعوة (هيلانة) يهودية أيضا. أما عاصمة الإمارة فكانت مدينة أربيل.

وقد اعتلى (إيزاط) عرش الإمارة سنة 36 بعد الميلاد وامتد حكمه فيها حتى توفى سنة 60م، فخلفه أخوه مونوباس الثانى، وقد دام حكم هذه الإمارة أكثر من 75 سنة عندما غزاها تراجان إمبراطور روما سنة 115 أو 116م [1]، ولما كان أهل حدياب من الأراميين لغة وجنسا فالأرجح أن الملك " إيزاط " كان قبل تهوده أراميا وثنيا. وقد التزمت هذه العائلة الملكية اليهودية بولائها وإسنادها لليهود في القدس مما يدل على أنه كان هناك منذ القديم اتصال بين الأسباط العشرة في كردستان وبين اليهود في القدس.

ويقول الأب أدى شير في وصف إمارة حدياب ما هذا نصه: " أما حدياب وسماها العرب حزة فموقعها بين الزابين وكانت تمتد إلى أثور - وإلى نصيبين أيضا وكانت قاعدتها مدينة أربيل وفى الجيل الأول للمسيح كان يملك فيها ملك اسمه إيزاط، قال عنه يوسفوس المؤرخ اليهودى أنه اعتنق الديانة اليهودية على يد حنينا، وقد اشتهرت أمه هيلانة أثناء المجاعة التي حدثت في زمانها في أورشليم عندما جلبت القمح من مصر ووزعته على أهل أورشليم، وفى أيام إيزاط دخلت نصيبين تحت حكم أرابيل " [2].

وكانت إمارة حدياب في عهد حكم إيزاط موالية لحكم الفرثيين لذلك كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم، وقد لعبت دورا رئيسيا في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى فغدت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود ضد الرومان بين سنة 66 وسنة 70 للميلاد، كما كانت تسند الفرثيين في حروبهم مع

---

(1) Ibid, P. 354.

(2) " تاريخ كلدو وأثور "، ج1، ص 178 - 179.

الرومان [1].

ويقول الدكتور غرانت في كتابه المتقدم ذكره: أن عدد النساطرة في منطقة حدياب التي كانت تحت حكم ملك يهودى خلال القرن الأول للميلاد يبلغ مائة ألف نسمة، وقد كان أجداد هؤلاء يهودا من الأسباط العشرة قبل تنصرهم في أعقاب ظهور المسيح وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

كما ويذهب الدكتور غرانت [2] إلى أن القبائل اليزيدية القاطنة في كردستان هم كالنساطرة من أحفاد الأسباط العشرة اليهودية [3].

وفى نفس الوقت الذي اعتلى فيه إيزاط الأول على عرش حدياب في المنطقة الكردية توطدت في قلب منطقة بابل إمارة يهودية حكمت خمسة عشر عاما بين سنتى 20 و 35 بعد الميلاد [4]، كما أن هناك سلالات يهودية حكمت في القرن الأول للميلاد في أرمينيا وما جاورها من المقاطعات كايادوشيا وأيتوريا وأبيلين.

ولابد من التوضيح هنا أن حكام هذه الإمارات اليهودية كانوا في الغالب من أهل البلاد التي حكموها، لذلك فعندما نقول أن إمارة يهودية وجدت في هذا القطر أو ذاك في تلك الأزمان فهذا لا يعنى أن يهودا جاءوا من فلسطين واستولوا على الحكم في ذلك القطر. فإمارة حدياب مثلا كان حاكمها مونوباسس الأول وثنيا من أهل البلاد تزوج من أخته هيلينا فأنجبت منه إيزاطا الأول، والظاهر أن الوثنيين كانوا يحللون الزواج من الأخت.

وفى تلك الغضون اعتنق إيزاط الأول الديانة اليهودية وهو صبى بتأثير أحد التجار اليهود، كما اعتنقت أمه هيلانة الدين اليهودى أيضا تحت نفس التأثير. فلما مات مونوباسس الأول خلفه ابنه أيزاط الأول المتهود على العرش، وعلى الرغم من النتائج السياسية المترتبة على هذا التحول في المذهب وخاصة بالنسبة للأسرة الحاكمة في البلد فإن ذلك لم يغير ما كان الناس عليه من حيث قوميتهم وعاداتهم وتقاليدهم قبل التحول المذكور، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن التحول من

---

(1) انظر:
نيوزنر، " تاريخ اليهود في بابل - العهد الفرثى "، ص 5 - 64. " تاريخ كلدو وأثور "، ج2؛ سليمان صائغ، " تاريخ الموصل "، ج1، ص 19.
(2) انظر الملحق في آخر كتاب الدكتور غرانت.
(3) نيوزنر، " تاريخ اليهود في بابل "، ص 54 هامش 1.
(4) " المرجع السابق "، ص 62.

الوثنية إلى اليهودية أو إلى المسيحية بعد ظهورها كان أمرا مألوفا في الشرق في هذه الفترة بالذات، كما قامت في نفس الوقت حركة بين اليهود لاعتناق المسيحية. وقد استمر هذا التذبذب عدة قرون حتى كان ظهور الإسلام فقضى على هذا التذبذب حيث دخل أكثر الوثنيين في الإسلام كما دخل بعض اليهود وبعض المسيحيين في الإسلام أيضا.

## 16 ـ مستوطنة " جزيرة الفيلة " اليهودية في مصر:

وقد عثر في مصر على وثائق نشرت بين سنتى 1901 و 1911 تشير إلى أنه كان هناك مستوطنة يهودية على هيئة حامية عسكرية يسمى زعيمها وكاهنها الأعلى ييدونيا كانت قد أنشئت على الحدود الجنوبية المصرية مقابل أسوان على جزيرة في النيل سميت باليونانية " اليفانتين " للتعبير عن اسمها المصرى القديم " يب " ومعناه مدينة الفيلة. وتعود هذه الوثائق التي كتب بالأرامية إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أى إلى عصر أكسركسيس (486 - 465ق.م) وأرتاكسيس الأول (465 - 425 ق.م) ودارا الثانى (423 - 404 ق.م) من عهد الأخمينيين الذين حكموا فارس أكثر من قرنين (550 - 330 ق.م).

وتبرز أهمية هذه الوثائق من حيث أنها تلقى ضوءا على ما كانت مصر في هذه الحقبة من الزمن وبخاصة عندما صارت مصر تحت حكم الأخمينيين في عهد أرتاكسيس الأول ودارا الثانى.

وقد اختلفت الآراء حول أصل هذه المستوطنة اليهودية القديمة وأسباب وجودها هناك في تلك الأزمان، فيرى أويسترلى (Oesterly .M) أن أشور بانيبال (966 - 626 ق.م) عندما قام بحملته على مصر جند جيشا من الأسباط العشرة التي سباها الأشوريون إلى العراق وإلى ميديا وأسس منهم حامية لحماية الحدود الجنوبية لمصر بعد انفصال الحبشة عنها، في حين يرى سبنسر أن أهل الحامية هم من اليهود الذين سباهم الأشوريون إلى طوروس. وقد ذكر أن منسى ملك يهوذا (686 - 641 ق.م) قد مد أشور بانيبال في حملته على مصر بالرجال وذلك كما ورد في رسالة أريستيا أن الملك يساميتيك الثانى (594 - 589 ق.م) كان معه جنود مرتزقة من الساميين في حملته على الحبشة سنة 590 ق.م، ويشير هيرودوتس إلى وقوع تمرد في حامية اليفانتين في زمن الوثائق (450 ق.م)

فيذكر أن اليافنتين هى إحدى محميات الفرس في مصر.

ويستدل مما تنطوى عليه وثائق اليفانتين أن رجال الحامية اليهود كانوا يتكلمون الأرامية وهى نفس اللغة التي كانوا يتكلمونها في فلسطين وكان لهم هيكل لإلههم " يهوه " مثل الإلهة " عانات " الكنعانية مما يدل على أن هذه الحامية جئ بها من كنعان [1].

## 17 ـ الغزو الكلدانى و إزالة مملكة يهوذا:

وبعد انقراض الدولة الأشورية بسقوط نينوى سنة 612 ق.م [2] اقتسم الماذيون والكلدانيون ممتلكاتها فوقعت حصة الكلدانيين في سورية والعراق، وتأسست على أثر ذلك الدولة البابلية الكلدانية التي دام حكمها 73 سنة بين سنة 612 و 539 ق.م [3]. والذى يهمنا من حكم هذه الدولة قضاؤها على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بلاد بابل، وقد أنجزت هذه العملية على عهد " نبوخذ نصر الثانى " أعظم ملوك هذه الدولة، والذى حكم البلاد 43 سنة بين سنة 605 و 562 ق.م، وذلك في حملتين الأولى سنة 597 ق.م، والثانية في سنة 586 ق.م. وأهم مصادرنا عن هذا الحدث التاريخى هو التوراة، لأن أكثر كتابات هذا الملك تنحصر فيما سجله من مدونات في وصف مشاريعه العمرانية.

فتشير التوراة إلى أن الملك " يهوياقيم " ملك يهوذا (608 - 597 ق.م) تمرد على " نبوخذنصر " على الرغم من تحذير النبى " أرميا " له، وذلك بعد أن أظهر الطاعة والخضوع إلى العاهل الكلدانى مدة ثلاث سنوات، ثم تضيف التوراة أن " نبوخذنصر " أوعز في بادئ الأمر إلى السوريين (الأراميين) والموآبيين والعمونيين أن يغزوا مملكة يهوذا حيث كانت كل هذه الدويلات من النيل إلى نهر الفرات تحت قبضته [4].

ثم شن نبوخذ نصر بعد ذلك (سنة 597ق.م) حملة على " يهوياقيم " فحاصر أورشليم، وأثناء هذا الحصار توفى " يهوياقيم " وخلفه ابنه " يهوياكين " الذي

---

(1) Sami S.Ahmed "The Jewish Colony at Elephantine". The Iliff Review, Vol XX XI, no 2, Spring 1965, pp. 11 - 19; A.Lods, "Les Prophetes d'Israel", Paris, 1950, pp. 344 - 353.

(2) انظر ما تقدم عن نهاية الدولة الأشورية في الفصل الأول.

(3) انظر ما تقدم عن الكلدانيين في الفصل الأول.

(4) (2 مل، 24: 1 - 6).

اضطر إلى الاستسلام، فسبى " نبوخذنصر " كل يهود أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبى وجميع الصاع والأقيان، ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض كما سبى " يهوياكين " وأمه ونساءه ورجاله من أورشيم إلى بابل. وأخرج " نبوخذ نصر " جميع خزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب، ثم عين " صدقيا " عم " يهوياكين " خلفا ليهوياطين الذي أكد ولاءه للملك الفاتح [1]. وقد تم إسكان المسبيين وعوائلهم في منطقة تدعى " نهر الخابور " قرب نيبور (نفر) [2]. وهذا كان خلاف عادة الأشوريين الذين كانوا يشتتون أسراهم في أماكن مختلفة وبعيدة لمنعهم من التكتل والتجمع وممارسة تقاليدهم وثقافتهم. فمكن ذلك اليهود من التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وتكوين مجتمعهم المنعزل الخاص بهم.

كان هذا هو السبى الأول ثم تبعه السبى الثانى سنة 586 ق.م، وهذا وقع على أثر نقض (صدقيا) لعهده بالولاء لـ " نبوخذنصر " إذ دخل في حوالى سنة 589 ق.م في تحالف مع المدن السورية والفلسطينية بتحريض من " حوفرا " ملك مصر (خلف نيخو الثانى) الذي كان يطمح في استعادة سيطرة مصر على سورية، وهكذا فقد وضع " صدقيا " مصيره مع مصر وحلفائها على رغم محاولة أرميا إبعاده عن هذا الحلف الذي كان موجها ضمنا ضد " نبوخذ نصر "، فغضب " نبوخذنصر " غضبا شديدا وجاء هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية إلى سورية الشمالية وعسكر في ربلة على نهر العاصى، وكان ذلك سنة 587ق.م، فأرسل " نبوخذنصر " من يحاصر أورشليم، إلا أن دخول " حوفرا " ملك مصر إلى فلسطين اضطر البابليين إلى رفع الحصار لمحاربته، فظن اليهود أن النصر بات حليفهم، ولكن النبى أرميا حذرهم وأبان لهم بأنهم يخدعون أنفسهم بهذا النصر لأنه وقتى فوضعوه في السجن [3].

ووقع كما تنبأ أرميا فعلا فقد تمكن البابليون من صد المصريين وإرجاعهم على أعقابهم، ثم أعادوا بسط الحصار على أورشليم في الحال، ولم يمض وقت طويل حتى تفشت المجاعة وربما الوباء في المدينة مما اضطر اليهود أن

(1) (2 مل، 24: 9 - 17).

(2) إن اسم " نهر الخابور " يشمل أكثر من نهر واحد، فهناك نهر الخابور في شمال الفرات ونهر الخابور في شمال نهر دجلة، والمقصود هنا هو غير هذين النهرين.

(3) أرميا 38: 2.

يرضخوا ويستسلموا، فدخلت الجيوش البابلية المدينة في اليوم الرابع من شهر تموز سنة 586 ق.م، أما صدقيا فهرب هو وأفراد عائلته ولكن البابليين لحقوا به في سهول أريحا حيث قبضوا عليه وحملوه إلى " ربلة " حيث كان مقر معكس الملك نبوخذنصر، وهناك ذبح أولاده أمام عينيه ثم فقئت عيناه وأخذ مكبلا مع الأسرى إلى بابل وكان النبى دانيال بين المسبيين، أما أورشليم فخربت ودمرت تدميرا كاملا فأخرف بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء وسلبت الخزائن ونقلت إلى بابل، وقد خمن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبى الأول بحوالى 50.000 شخص ثم وجه " نبوخذ نصر " بعد ذلك جيشه إلى المدن الفينيقية والسورية فأخضعها إلا مدينة صور فقد تعذر عليه فتحها لكونها جزيرة في البحر، وقد دام حصارها 13 سنة (585 - 573 ق.م) ولم ينته إلا بعقد صلح قبلت صور بموجبه تجديد ولائها لبابل ودفع الجزية [1].

وهكذا قضى على مملكتى إسرائيل ويهوذا الهزيلتين، وكان عدد الملوك الذين حكموا في كل منهما عشرين ملكا، وقد دام حكم إسرائيل 209 سنوات وذلك بين سنة 931 و 724 ق.م، ودام حكم يهوذا 345 سنة وذلك بين سنة 931 و 586 ق.م.

وبعد تخريب نبوخذنصر لبيت المقدس وسبى بنى يهوذا إلى بابل ورث الأدوميون ديار يهوذا الجنوبية من الخليل إلى بئر السبع فشرقا إلى وادى عربة حتى يتصل بتخوم أدوم. ومن الأدوميين الذين حكموا فلسطين في النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد هيرودس الكبير (37 - 4 ق.م) ومن بعده أبناؤه أرخيلاوس وأنتيباس وفيليب، وكان الأدوميون عربا مواطنهم على حدود الصحراء الشرقية في جنوبى فلسطين وهم من نسل عيسو كما تقول التوراة.

### 18 ـ الموسويون بين الوثنية والتوحيد:

قلنا في الفصل السابق أن الموسويين أخذوا بالحضارة الكنعانية واقتبسوا لغة الكنعانيين وتقاليدهم وثقافتهم ولم يستطيعوا التخلص من تأثير الكنعانيين حتى على ديانتهم، فإذا استعرضنا تسلسل الحوادث التي دونتها التوراة ذاتها نجد أن تاريخ اليهود منذ عهد موسى حتى زمن السبى يتميز لفترة سبعمائة عام بصراع بين التوحيد والوثنية. فمنذ عهد موسى وهو لم يزل حيا عاد أتباعه يعبدون العجل

(1) Rogers, "Cuneiform Parallels", PP. 360 - 363.

ويرقصون حوله وزاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصاهم به الله [1].

وتروى التوراة كيف غضب موسى عندما أبصر العجل والرقص حوله فطرح لوحى التوراة من يديه وكسرهما في أسفل الجبل [2]، ثم عاود كتابة لوحين آخرين مثل الأولين [3]، وخاطب الشعب قائلا: " أنا عارف تمردكم.. هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى... لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام " [4]، وفى هذا دليل واضح على عدم اعتماد النبى موسى على بنى قومه فقد تنبأ قبل موته بأنهم سوف ينصرفون عن الوصايا العشر التي أوصاهم بها الله.

والظاهر أن الموسويين عبدوا الرب كل أيام يشوع وكل أيام الشيوخ (القضاة) على ما ذكرته التوراة [5]، إلا أنهم عادوا بعد ذلك " فعبدوا البعليم وتركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت " بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها[6]، فسلط عليهم الرب كوشان رشعتائيم ملك أرام النهرين [7]، وفى زمن عجلون ملك موآب عاد الموسويون وعبدوا آلهة الوثنيين [8]، وكذلك عبدوا الأوثان في عهد يابين ملك كنعان الذي ملك في حاصور [9]، ثم عادوا فزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريث إلها[10]، ورجعوا فعبدوا آلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين [11].

وتزعم التوراة أن الملك سليمان ذاته (960 - 925 ق.م) انحرف في أخريات أيامه وأشرك بالله إذ " أحب نساءا غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات

(1) (خر، 32: 7 - 8).
(2) (خر، - 32: 19 - 20).
(3) (خر، 34: 1)؛ (تث، 10: 1 - 2).
(4) (تث، 31: 27 - 30).
(5) (يش، 24: 31)؛ (قض، 2: 7).
(6) (قض، 2: 11 - 13 ز 17، 3: 5 - 7).
(7) (قض، 3: 8).
(8) (قض، 3: 12 - 13).
(9) (قض، 4: 1).
(10) (قض، 8: 33).
(11) (قض، 10: 6، 13: 1).

وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل (الموسويين) لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السرارى فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن [1]. والظاهر أن هذه المرتفعات التي بناها سليمان قبالة أورشليم بقيت قائمة تعبد فيها الأصنام حتى هدمها يوشيا ملك يهوذا (639 - 608 ق.م) وبذلك تكون قد بقيت قائمة أكثر من 350 عاما [2].

وتزعم التوراة كذلك أن يربعان الأول أول ملك على إسرائيل بعد الانقسام (931 - 909 ق.م) أقام عجلين من الذهب وضع أحدهما في " بيت إيل " وجعل الآخر في " دان " وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لواى وأخذ يذبح للعجلين، وهذا هو الذي حمل النبى هوشع على أن يسمى " بيت إيل " بيت عجول لون أى بيت الأصنام [3].

والظاهر أن بريصام خشى أن ترجع المملكة إلى بيت داود فيرجع قلب الشعب إلى سيدهم رحبعام ملك يهوذا إذا صعد الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم [4]، فرجع هو ورعاياه إلى عبادة الأصنام.

وكانت السامرة أيضا مركزا لعبادة الأصنام، ففى عهد آخاب بن عمرى سابع ملوك إسرائيل (873 - 853 ق.م) أقيم معبد للبعل في السامرة عبده آخاب وسجد له [5] وقد تبعه في ذلك خلفه الملك أحزيا فمشى على تلك السيرة مع أنه أزال هيكل البعل الذي أقامه أبوه آخاب [6]، ولما اعتلى العرش الملك ياهو (841 - 813

(1) (1 مل، 11: 1 - 8).
(2) (2 مل، 23: 13 - 14).
(3) (هو، 10: 5 و 8).
(4) (1 مل، 12: 25 - 29).
(5) (1 مل، 16: 30 - 33).
(6) (2 مل، 3: 1 - 2).

ق.م) أحرق هيكل البعل وذبح كهنته [1].

ولم يكن ملوك إسرائيل قد انفردوا في الوثنية والإشراك بالله، فقد سار رحبعان أول ملك على يهوذا (931 - 913 ق. م) بعد الانقسام على نفس السيرة التي اتبعها أول ملك لإسرائيل، إذ " ترك شريعة الرب هو وكل إسرائيل معه " [2]، كما أن الملك آحاز (735 - 715 ق.م) سار في طريق ملوك إسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم وأوقد في وادى ابن هنوم [3] وأحرف بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل [4]، وسار على هذه السيرة أيضا الملك منسى (686 - 641 ق.م) فأقام مذابح للبعليم وعمل سوارى وسجد لكل جند السماء وعبدها.. وعبر بنيه في النار في وادى ابن هنوم.. ووضع تمثال الشكل الذي عمله في بيت الله الذي قال الله عنه لداود ولسليمان ابنه في هذا البيت وفى أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد " [5].

والظاهر من مطاوئ التوراة أن عبادة بنى إسرائيل (الموسويين) للأوثان استمرت بعد الانقسام حتى تحققت نبوءة رجل الرب ليربعام، فحكم يوشيا سنة 639 ق.م في يهوذا وهو من بيت داود كما جاء في النبوءة، فهدم جميع المذابح والمعابد التي كانت قد أقيمت في إسرائيل وفى يهوذا وأحرقها وخرب أصنامها وهياكلها وحطم جميع بيوت المرتفعات الوثنية وذبح كهنتها، ومن ضمن هذه المرتفعات التي قبالة أورشليم التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت ولكموش ولملكون آلهة الصيدونيين والموآبيين والعمونيين، كما هدم المذابح التي عملها ملوك يهوذا في بيت الرب وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم على وادى قدرون [6]، وأحرقها في وادى قدرون ودفنها إلى أن سارت غبارا [1]،

---

(1) (2 مل، 10: 18 - 30).

(2) (2 أ خ، 12: 1 - 2).

(3) يقع هذا الوادى جنوبى أورشليم وغربيها يسمى الآن بوادى ربابة ويسمى في التوراة " وادى هنوم " (يش، 15: 8)، (نح، 11: 30)، ووادى ابن هنوم (يش، 15: 8، 18: 16)، ووادى بنى هنوم (2 مل، 23: 1) (انظر الملحق الأول).

(4) (2 أخ، 28: 2 - 3).

(5) (2 أ خ، 33: 2 - 7).

(6) يقع هذا الوادى شرقى مدينة أورشليم، ومعنى وادى قدرون الوادى الأسود ويسمى أيضا " وادى يهوشافاط " وهو بين سور المدينة من الجانب الشرقى وجبل الزيتون،

وبذلك يكون اليهود قد عادوا إلى عبادة الأصنام واستمروا عليها حوالى 300 عام بعد الانقسام مباشرة.

وإذا أخذنا المثل القائل إن الناس على دين ملوكهم اتضح لنا تعليل رجوع اليهود في إسرائيل ويهوذا إلى الوثنية، مما يدل على أنهم كانوا أقلية ضئيلة أمام سكان البلاد الوثنيين الأصليين الذين أخذوا يتكاثرون على حساب اليهود، ومعنى ذلك أن الديانة الوثنية كانت هى الغالبة في البلاد وأن اليهود كانوا أقلية طيلة مدة بقائهم فيها. وهكذا بقيت فلسطين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد حتى السبى البابلى الأخير (أى ما يقارب 2400 سنة) كنعانية في ثقافتها ولغتها وديانتها الوثنية، ولم يكن لليهودية أى دور ثقافى في هذه الفترة [2].

**19 ـ العبرية واليهودية والتوراة:**

يتفق الباحثون على أن الموسويين بعد أن استقروا في أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أخذوا بالثقافة الكنعانية وبحضارتها بما في ذلك اللغة الكنعانية التي كان يتكلم بها أهل البلاد ولم تكن قد تكونت لغة عبرية بعد. ولاشك في أن لغة هؤلاء الموسويين عندما جاءوا إلى كنعان كانت اللغة المصرية، ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يتعرفوا على كنعان، إذ كان الاتصال بين المصريين والكنعانيين قائما منذ أقدم العصور، وذلك بحكم الحدود المشتركة ونتيجة فتوحات المصريين في الشرق وسيطرتهم السياسية على كنعان، ويستخلص من ذلك أن الموسويين كانوا أقلية بين السكان وأن الحضارة الكنعانية كانت هى السائدة حتى في عهد الملوك في القرن العاشر قبل الميلاد، أى بعد زمن موسى بحوالى ثلاثمائة عام بدليل أن الديانة الوثنية الكنعانية كانت هى السائدة في البلاد وبقيت هى السائدة حتى السبى البابلى وما بعده إذ تقول التوراة أن الملك سليمان نفسه بنى مرتفعات لعبادة آلهة الوثنيين، وكذلك تؤكد التوراة أن ملوك إسرائيل ويهوذا كانوا يدينون بالوثنية وصارت ديانتهم الرسمية واستمرا على هذه الحال زهاء

---

ويعرف اليوم بوادى ستى مريم وقد ورد ذكره في التوارة عند ذكر هروب الملك داود من وجه ابنه أبشالوم (2 صم، 15: 23 و30)، (انظر الملحق الأول " أورشليم في أقدم عصورها "..

(1) (2 مل، ص 23).

(2) انظر ما تقدم في الفصل الرابع " ملاحظات ختامية " وما تقدم في هذا الفصل " عهد الملوك ".

ثلاثمائة عام بعد الانقسام مباشرة. ولما كانت الديانة هى أساس الثقافة فهذا يدل بوضوح على أن الموسويين لو يكونوا أية ثقافة خاصة بهم خلال وجودهم في فلسطين وإنما اقتبسوا الثقافة الكنعانية بما في ذلك اللغة والديانة من أهل البلاد الأصليين أى من الكنعانيين وبذلك كانوا أقلية في البلاد في جميع أدوار وجودهم في فلسطين.

ومن الثابت أن هؤلاء الموسويين أخذوا بالأرامية بعد انتشارها في الشرق فصاروا يتكلمون بها فيما بينهم، وفى غضون ذلك تكونت لدى كهنتهم اللهجة الأرامية الخاصة بهم، وهى التي صارت تعرف فيما بعد بالعبرية، وأخذوا يكتبون بها فاستعملوا حروفا فينيقية قديمة في بداية الأمر ثم أخذوا يكتبون بالخط السامرى، وبعد السبى البابلى وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الأرامية لذلك صارت تعرف بأرامية التوراة وقد استعملوا الخط المسمى بالخط المربع الذي اقتبسوه من أقدم الأقلام الأرامية بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد فحفظوه إلى يومنا هذا ويسمى الآن بالخط الأشورى المربع.

وهذه هى بالطبع غير لغة موسى المصرية التي نزلت فيها توراة موسى الأصلية، كما أن مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى. فهذه التوراة يصح تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل فأضفوا عليها القدسية وفرضوها على أتباعهم بعد رجوع بعضهم إلى فلسطين على عهد عزرا (كاتب شريعة إله السماء) كما تلقبه التوراة [1]. وأقدم ما وصل إلينا من هذه التوراة مخطوطات قمران التي ترجع إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد [2].

ومع أن هذه التوراة كتبت بالعبرية (أرامية التوراة) فقد كان اليهود يتكلمون الأرامية فيما بينهم واقتصرت العبرية هذه على كتب التوراة وحدها، أما اليهود في مختلف بلدان العالم فكانوا ومازالوا يتكلمون بلغة الأقطار التي سكنوها فيقرؤون التوراة دون أن يفهموا معناها.

وأوضح دليل على أن اللغة العبرية أصبحت لغة مهجورة ميتة هو أن آخر من بقى من اليهود في العراق الذين استوطنوا المناطق الجبلية المنعزلة في شمال العراق (منطقة الأكراد) كانوا ومازالوا يتكلمون باللهجة الأرامية وليس بالعبرية

(1) (عز، 7: 21).
(2) انظر ما تقدم " أقدم الآثار الخطية للتوراة "، في الفصل الثالث.

[1]. وهذا ما يبرهن على أن العبرية لم تكن من اللغات الحية إذ بقيت مقتصرة على كتب التوراة وحدها، وأن ما يبذله الصهاينة اليوم لإحياء هذه اللغة الميتة بغية تكوين تراث ولغة ليجعلوا منهما قومية يهودية تستند إلى لغة يهودية قد ينجح في مجال ضيق داخل إسرائيل الحالية ولكن أساس هذه القومية أساس من الرمل لن يلبث أن ينهار بزوال وجود إسرائيل.

وفى ذلك يقول ليون إبراهام: " إن العبرية قد اختفت باكرا كلغة حية وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب المجاورة، ولكن استعمل هذا التبنى اللغوى عادة بلهجة جديدة حتى ترد بعض العبارات العبرية، ونجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية عربية، وعبرية فارسية، وعبرية بروفنسية، وعبرية برتغالية، وعبرية أسبانية... الخ هذا عدا عن الإشارة إلى العبرية الألمانية التي أصبحت اللغة اليديشية في عصرنا الحاضر [2].

وقد درج أكثر الباحثين على اعتبار وجود لغة عبرية قديمة وعبرية متأخرة في حين أنه لا توجد سوى لغة عبرية واحدة هى التي كتبت بها التوراة في الأسر في القرن السادس قبل الميلاد وما بعده. والحقيقة أن المقصود بالعبرية القديمة هى اللغة الكنعانية القديمة لغة أهل البلاد الأصلية لا غير وهى التي أخذ بها الموسويون بعد عصر موسى إذ لم تظهر العبرية إلا بعد أن أخذ الكهنة اليهود يدونون توراتهم في لهجة " أرامية التوراة " المقتبسة من الأرامية [3]، مع العلم أنه ليس لدينا أى دليل على أنه كانت في البلاد في عصر الملوك لغة غير لغة سكان فلسطين الأصليين، وهى لغة الكنعانيين القديمة.

والحقيقة الثابتة التي تظهر لنا جليا مما تقدم أن اليهودية أى الدين اليهودى المتمثل بالتوراة الحالية، تبدأ بعد تدوين الكهنة لهذه التوراة في الأسر وإذاعة شريعتهم هذه على لسان عزرا (كاتب شريعة الإله) في القرن الخامس قبل الميلاد، وهى غير الشريعة التي نزلت على موسى قبل ثمانمائة عام والتى انحرف عنها اليهود بعد اغتيال موسى على بعض الأقوال،وهذه الديانة اليهودية

(1) W.J. Fischel, "The Jews of Kurdistan a Hundred Years ago pp. 205, 215 - 16; J.H. Gotfheil, "The Judeo-Aramaie Dilect Salamas Jeurnal of American Oriental Sooiety, 1893, XV.

(2) ليون إبراهام: " المفهوم المادى للمسألة اليهودية "، الترجمة العربية، ص 31.

(3) انظر ما تقدم " ملاحظات ختامية " في الفصل الرابع.

هى صهيونية اليوم بعينها، إذ تهدف الصهيونية الحالية إلى إحياء اللغة العبرية الميتة واستغلال عاطفة الدين الذين صيغ في الأسر في بابل للتصميم على إقامة دولة يهودية في فلسطين، وهذه الديانة القائمة على مبدأ الاستعمار واغتصاب حقوق الغير بالقتل والإبادة لم يكتب لها البقاء لأنها لم تكن تستند إلى مقومات ثقافية وتراث أصيل، لذلك سرعان ما قضى عليها بعد أن ظلت تتعثر في وجه الاضطهاد ومقاومة أهل البلد حتى قضى عليها على يد الرومان في عام 70 ب.م وسوف تلقى صهيونية هذا الزمان نفس المصير حتما عاجلا أو آجلا تحقيقا للمبدأ القائل: " إن التاريخ يعيد نفسه ".

## 20 ـ اليهود في زمن الفرس الأخمينيين:

كانت تمثل جماعة السبى البابلى بقايا جماعة موسى، وهم في الأصل خليط من الجنود المصريين والهكسوس ولا صلة لهم ببنى إسرائيل كما أوضحنا فيما تقدم، ثم اختلط معهم من اعتنق اليهودية من مختلف الأجناس، وقد جاءت تسميتهم باليهود من مملكة يهوذا المنقرضة، وقد صارت هذه التسمية تشمل جميع المنتسبين إلى الديانة اليهودية في مختلف أنحاء العالم، ومازالت تستعمل حتى يومنا هذا بنفس هذا المدلول. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن تلك البقايا من أتباع موسى قد استفادت في أثناء وجودها في بابل من حضارة البابليين وثقافتهم فاقتبست الكثير منها وخاصة ما يتعلق بفنون الزراعة والتجارة،و أخذ أكثرها يمارس الزراعة التي تعتمد على الإرواء الدائم بما في ذلك أساليب شق الجداول وتطهيرها وطرق الإراوء [1].

ومارست في بابل شعائرها الدينية، وواصل كهنتها أعمالهم ومنها كان نشوء التعاليم اليهودية المعروفة باسم " التلمود البابلى " [2]، حتى ليقال أن السبى البابلى كان عاملا قويا في تطوير الدين اليهودى في القرون التالية، وكان من المدن التي أسسها اليهود في منطقة بابل: نهر دعه، وفومبديثه، وسورا، وماحوزى، ونهر بيكود، وهوزال، وتل أبيب (تل أبان) وكفرى.

ولما فتح كورش الأخمينى الفارسى بلاد بابل (539 - 538 ق.م) سار في

---

(1) انظر:

S. Daiches, "The Jews in Babylonia", 1910 ; Rabbi J. Newman, "The Agricultural Life of the Jews in Babylonia", 1932.

(2) انظر ما تقدم عن التلمود في الفصل الثالث.

فتوحاته حتى احتل سورية وفلسطين ومن ضمنها أورشليم، فسمح لمن أراد من أسرى نبوخذ نصر (أسر 597 وأسر 586 ق.م) بالرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنوز الهيكل التي كان قد سلبها نبوخذنصر، وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك [1]، فعاد فريق منهم، ويرجح المؤرخون أن الذين رجعوا انحصروا في أولئك الذين لم يفلحوا كثيرا في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة بناء الهيكل، لأن الدلائل تشير إلى أن هناك عددا غير قليل أصاب النجاح في بلاد بابل وأثرى حتى أصبحت لديه ممتلكات كثيرة فآثر البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير. وقد عين أول حاكم على الجالية اليهودية شخص يدعى " زربابل " وهو تابع للدولة الفارسية، فشرع " زربابل) هذا في بناء الهيكل إلا أن الأقوام المجاورة كالحوريين والحيثيين والعونيين والأدوميين احتجوا على ذلك وهددوا بالعصيان، فأصدر " سمريدس " خلف قمبيز الثانى سنة 522 ق.م أمرا بتوقيف عملية البناء، ولكن دارا الأول أتاح لهم ذلك وأتموا بناء الهيكل على عهده سنة 515ق.م.

وكان اليهود يتكلمون فيما بينهم في بابل باللغة الأرامية، إذ كانوا في بابل وحتى بعد عودتهم إلى أورشليم يتكلمون اللغة الأرامية، وقد اقتصرت العبرية على الكتب الدينية وعلى الكتب المقدسة [2]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

### 21 ـ اليهود في زمن الإغريق:

وكان اليهود الذين رجعوا إلى فلسطين في عهد الفرس قد تجمعوا في منطقة أورشليم على الأكثر وقد تمتعوا خلال حكم الفرس ببعض الامتيازات الخاصة بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، وما أن حل العهد الإغريقى (332 - 64 ق.م) حتى أصبح وضعهم يتأرجح بين المد والجذر فتارة يقعون تحت حكم البطالمة في مصر وتارة أخرى تحت حكم السلوقيين في سورية، وكانوا يستفيدون في بعض هذه الأدوار من الخلاف المستحكم بين هذين الفريقين اليونانيين الحاكمين في الشرق في التمتع بالحكم الكهنى الذاتى، ولكنهم لاقوا أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقى أنطيوخس الرابع (أبيفان) (175 - 164 ق.م) فقد دمر هذا الملك الهيكل ونهب خزائنه وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية، وهنا أخذ الصراع بين اليهودية والإغريقية يشتد يوما بعد يوم حتى اندلعت ثورة المكابيين،

(1) (عزرا، 6: 3 - 7، 1: 7 - 11).

(2) Hitti, "History of Syria", P. 223.

وقد أطلق على عصرهم الذي دام حوالى القرن وربع القرن (166 - 37 ق.م) اسم العصر المكابى.

## 22 ـ اليهود في زمن الرومان:

وبعد تغلغل الرومان في الشرق وتغلبهم على السلوقيين في سورية أصبحت فلسطين تحت حكم الرومان، ففى سنة 64 ق.م احتل القائد الرومانى بومبى سورية وضمها إلى رومة وفى السنة التالية دخل بومبى أورشليم وجعلها تابعة لحاكم سورية الرومانى، ولم يكن اليهود في هذا العهد أحسن حالا مما كانوا عليه في العهد الإغريقى، فكانوا بين المد والجذر أيضا في ظروف مضطربة ناجمة عن صراع الزعماء الرومان فيما بينهم على الحكم ففى عهد قيصر مثلا (49 - 43 ق.م) كان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وبحكم كهنى ذاتى، ثم بعد اغتيال قيصر سنة 44 ق.م نشب خلاف بين أوكتافيان فتولى زمام الحكم بصفته أول إمبراطور رومان وسمى " أغسطس ". وفى هذه الفترة كان " أنطونيوس " و " أوكتافيان " قبل نشوب الخلاف بينهما قد عينا " هيرودس " الأدومى ملكا على يهوذا وعلى الجليل سنة 39 ق.م. واستمر حكمه في فلسطين حتى وفاته سنة 4 ق.م، وفى عهده أعيد بناء الهيكل في أورشليم ولكن اليهود كانوا يمقتونه لقساوته الوحشية ولاندفاعه في نشر الثقافة اليونانية والرومانية وإنشاء معابد للأصنام في المدن الفلسطينية. وبعد وفاة " هيرودس " اضطربت الأحوال على يد موظفين رومانيين سيئ السيرة قساة التصرف، ومن أهم ما تخللته هذه الفترة من أحداث محاكمة السيد المسيح عليه السلام وصلبه سنة 29 م، على ما جاءت به الأخبار، ثم عين " هيرودس أغريبا " حفيد " هيرودس " ملكا على فلسطين في عهد الإمبرطور " كاليجولا " (37 - 41 م) والإمبراطور " كلوديوس " (41 - 54 م) فساد الهدوء في البلاد نسبيا إلا أن الاضطرابات والفوضى عادت بعد وفاة " هيرودس أغريبا " سنة 44 م إذ تولى في الفترة بين سنة 44 و 66 م سبعة من الحكام الرومانيين كلهم سيؤوا الأخلاق ومرتشون حتى وقع الانفجار في ربيع سنة 66 م فإذا بها ثورة عارمة شاملة على الحكم الرومانى، وبعد سلسلة من المعارك على عهد الإمبراطور " نيرون " (54 - 68 م) وخلفه " فسبسيان " أودعت القيادة في فلسطين إلى " تيطوس " ابن الإمبراطور " فسبسيان " فسيطر على الموقف وتمكن من القضاء على الثورة ودخل أورشليم سنة 70م وأوقع مذبحة مريعة باليهود وخرب المدينة وأحرق هيكلها وذبح كهنته وأزيل الهيكل من الوجود تماما بحيث لم يعد يهتدى الناس إلى

موضعه وقد سيق الأحياء الباقون عبيدا، وقد ذكر المسعودى أن عدد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة آلاف ألف [1].

وهكذا قضى على الكيان الذاتى الدينى لليهود في فلسطين ومن ضمن ذلك التنظيمات الإدارية الدينية التي كانت تتمثل بالسنهدرين، فساد الهدوء حوال نصف قرن، ثم اشتعلت نيران ثورة جديدة بقيادة " باكوخبا " أحد زعماء اليهود فاعتصمت جماعة في المواقع الجبلية الحصينة وأخذوا يقاتلون قتال حرب عصابات، وظلوا معتصمين بمواقعهم ثلاث سنوات (132 - 135 م) حتى جرد الرومان عليهم حملة اجتاحت مواقعهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم، وحول (هادريان) مدينة أورشليم إلى مستعمرة رومانية وحرم على اليهود سكناها وبدل اسمها إلى " إيليا كبتولينا " وإيليا هو الاسم الأول لهادريان. وقد أسكنت جالية رومانية ويونانية في أورشليم وأقيم في محل الهيكل معبد للإله اليونانى جوبيتر. وقدر عدد الذين قتلوا في هذه المعارك 580 ألفا عدا من هلك جوعا ومرضا وحرقا، وهذه هى الضربة الأخيرة لليهود في فلسطين، فلم يعد لهم أى كيان فيها طوال العصور التالية.

**23 ـ لم يشكل اليهود أكثرية في فلسطين في أى دور من أدوارهم:**

نخلص مما تقدم إلى أن سكان فلسطين من غير اليهود كانوا يتكاثرون يوما بعد يوم ويتمركزون في أرضهم في حين أن اليهود كانوا يتقلصون نتيجة تعرضهم الاضطهاد والقتل والسبى من دون سكان البلاد الأصليين، لذلك لم يستطع اليهود، كعنصر غريب بينهم تشكيل أكثرية في فلسطين في أى دور من أدوارهم، فكان أول من غزا مملكتى يهوذا وإسرائيل بعد الانقسام الفرعون الليبى شيشنق الأول، فأخضع مدنهما سنة 926 ق.م، وأخذ معه أسرى من 129 مدينة يهودية، هذا عدا نهب ذخائر الهيكل وبيت الملك في أورشليم. ثم استولى تجلات بلاسر الثالث ملك أشور (745 - 727 ق.م) على كل أراضى إسرائيل (عدا السامرة) وسبى اليهود إلى بلاد أشور وأحل محلهم أقوام من بابل ومن لولوبو في الزاغروس ومن نايرى قرب بحيرة " وان "، وفى سنة 722 ق.م تم لسرجون الثانى في إبان حكمه احتلال إسرائيل وعاصمتها السامرة فأجلى اليهود إلى ناحية " حران " وإلى ضفة الخابور (خابور

(1) التنبيه والإشراف، ص 110.

الفرات) وإلى ميديا وقد أحل محلهم الأراميين من إقليم حماة، ثم لحق بهم العرب هناك في عام 715 ق.م. وكذا بعض الأهلين من كوثا وبابل سنة 709 ق.م. وبذلك قضى نهائيا على يهود مملكة إسرائيل واختفت أخبارهم حتى عن بقية اليهود في يهوذا وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وسبب اضمحلالهم وإبادتهم يرجع إلى تشتيتهم في أماكن مختلفة وبعيدة للحيلولة دون تجمعهم وإعادة بناء مجتمع يهودى يتطلع إلى العودة.

وهذه كانت الطريقة التي اتبعها الأشوريون في البلاد التي كانت تتمرد عليهم. وفى حملة سنحاريب على أرض يهوذا سنة 701 ق.م أجلى عن مدن يهوذا 200150 نسمة من اليهود. وفى سنة 597 ق.م حمل نبوخذنصر الثانى ملك الكلدانيين (605 - 562 ق.م) على أورشليم وأسر ملكها " وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى وجميع الصناع والأقيان سباهم من أورشليم إلى بابل. ولم يبق إلا مساكين شعب الأرض، وأخيرا وقع السبى الثانى سنة 586 ق.م حين قضى نبوخذ نصر على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل. وقد قدر عدد الذين سباهم نبوخذنصر بأكثر من خمسين ألف شخص، هذا عدا الذين قتلوا، وبذا يكون قد قضى على آخر من تبقى من اليهود في فلسطين، وقد ورث الأدوميون سكان فلسطين الأصليون ومعهم الأنباط ديار يهوذا بعد القضاء على مملكة يهوذا وسبى اليهود منها.

وبعد عودة اليهود من بابل إلى فلسطين في زمن الفرس أنشئت في عهد الإسكندر مستعمرات إغريقية بين اليهود، ثم بعد وفاة الإسكندر نزل بطليموس الأول (سويتر) ملك مصر سنة 300 ق.م على أورشليم ونقل عددا كبيرا من اليهود إلى أفريقيا، وأخيرا قضى الرومان نهائيا على من تبقى منهم وبقى سكان فلسطين الأصليون ومعهم من دخلها من غير اليهود في وطنهم فلسطين حتى الفتح الإسلامى، حيث بقيت بيد المسلمين قرابة ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن. وفى جميع هذه الأحوال لم يترك سكان فلسطين بما فيهم سكان القدس وطنهم.

ويستدل مما تقدم بوضوح على أن أهل فلسطين الأصليين بقوا في أراضيهم منذ خمسة آلاف عام ولم يغير حكم داود وسليمان الذي لم يطل أكثر من ثمانين عاما أو حكم إسرائيل ويهوذا الهزيل هذه الحقيقة التاريخية الواقعة، ونحن إذ نكرر هنا حوادث السبى التي تعرض لها اليهود في فلسطين وحل من حل محلهم من مختلف الأقوام، الحوادث التي مر شرحها بالتفصيل فإن جل ما نتوخاه هو

البرهنة على أن أهل فلسطين الأصليين ومعهم من دخلها من غير اليهود بقوا وتكاثروا في وطنهم دون أن يمسهم أى أذى وكانوا في جميع الأحوال الأكثرية الساحقة في البلاد، في حين أن اليهود كانوا يتقلصون على مر الزمن يوما بعد يوم نتيجة عمليات السبى المستمرة حتى أزيلوا نهائيا من أرض فلسطين، وبقى أهلها الأصليون في وطنهم كوثنيين ومسيحيين قبل الإسلام وكمسلمين ومسيحيين بعد الإسلام.

## 24 ـ خلاصة وتعليق:

إن اليهود لم يتركوا أى كيان سياسى يهودى خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم، ولكنهم تركوا ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من تراث كنعانى وبابلى وأرامى، وإن عهد الملوك بما فيه عهد داود وسليمان كان عهدا كنعانيا بحضارته ولغته وثقافته، وفشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة في فلسطين يرجع إلى عوامل كثيرة من أهمها في نظرنا عاملات أولهما هو أن الكيان اليهودى لم يقم على أساس قومى راسخ أصيل بثقافته ولغته وتقاليده ووطنه لأن اليهود لم يملكوا أى تراث خاص بهم فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة وديانة وتقاليد، وعادات مقتبس من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين كما أنه لم يكن لهم وطن إذ كانوا غرباء طارئين على فلسطين كما أوضحنا فيما تقدم فكيانهم قائم على الدين والدين وحده. والدين عرضة للتغيير والتبديل على خلاف ما هى عليه القومية من ثبات لاستنادها إلى ثقافة ولغة واحدة ووطن ثابت.

أما العامل الثانى فهو أن كيان إسرائيل كان قائما على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته وتقاليده وحكمه عاش في أرض فلسطين منذ خمسة آلاف عام، وقد جاء اليهود عازمين على طرد هذا الشعب من دياره وأخذ محله، زاعمين أن إلههم (يهوه) أمرهم أن يبيدوا هذا الشعب وأن يحلوا محله وأن الرب وعدهم أنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم [1]. وهذا الشعب العريق بقوميته وتراثه لا يمكن أن ينسى أن هذه الأرض هى أرض أجداده منذ أقدم الأزمنة وأنها اغتصبت منه. هذا عدا ادعاء اليهود بالاستعلاء والتفوق (الباطلين) على بقية شعوب الأرض وأن الله جعلهم الشعب المختار وجعل الناس عبيدا لهم مما كان له أثر في بعث النفرة والكراهية والانعزالية بينهم وبين سكان البلاد التي يعيشون فيها.

(1) (تث، 1: 30).

* * *